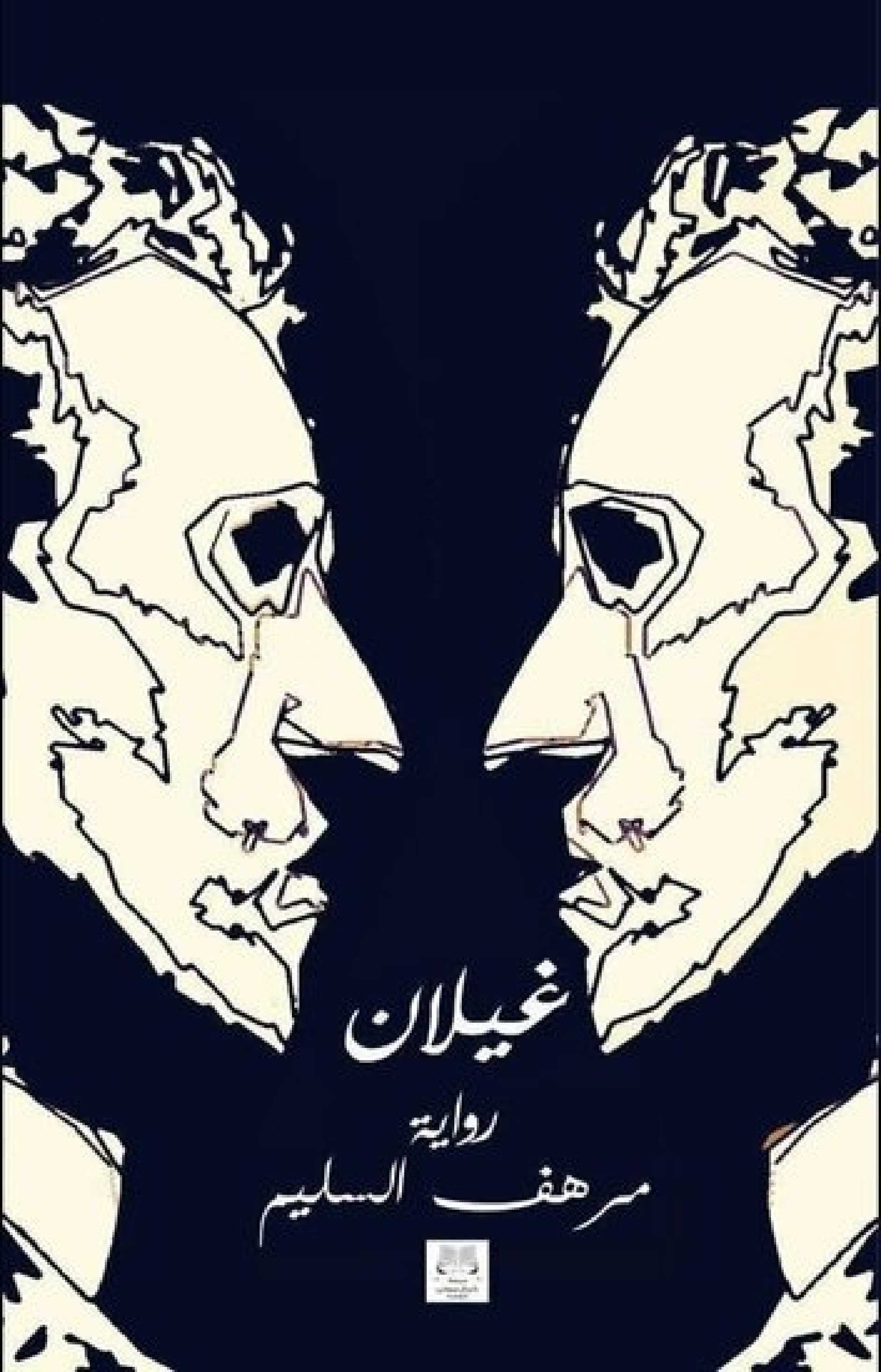

غيلان
رواية
مرهف السليم

غيلان

رواية

غيلان

Gailan

مرهف السليم

طبع في لبنان 2017
First Edition، Lebanon، 2017



ISBN: 978 - 1 - 77322 - 078- 9

غيلان

رواية

مرهف السليم



مقدمة

كل ما أعلمه أنك لا تستطيع أن تكتب في أي وقت تريد. حيث يجب أن تتجلى الحالة النفسية للكتابة مع تلك الموسيقى التي تحاكي مشاعرك الداخلية لأبعد الحدود، وأن تمتلك تلك الذهنية التي تجعلك تنهمر في كتابتك وأنت على عتبة البكاء أو عتبة الإدراك المفرط ،
الإدراك الدوستويفسكي، والوجود السارتري، وقلق بيسوا

الموحش، وديستوبيا اورويل الفتاكة، في عالم تتضاءل فيه الأقلية الفكرية . أن تكتب شيئاً وأنت بكامل وعيك وصحوتك، في بداية الصباح المبتسم للأمل والذي ينحدر تدريجياً الى ليل المواهب، وبشكل دراماتيكي إلى سوداوية المفكر الحتمية حتى تصل إلى ساعة الذروة والاختناق بجنون الأفكار الحبيسة، والطَرق على أزرار الحاسوب كمن يعزف مقطوعة الشتاء لفيفالدي، الطَرق بأقصى قوة كمن يريد أن يصهر روحه بحرارة الرغبة، وأن يسكبها على صفحات تنشد الرضا والتنفس من سجن العقل كما يسكب الشمع في قوالبه.

كثيراٌ ما كتبت بهدف الكتابة وفشلت وقليلا ما كتبت فقط لأن روحي نشدت أن تكتب. أخضعتها الموسيقى ورائحة المطر، ونبذ المألوف. ولعل هذا الثلاثي كان محرك الدافع ومولد الدوافع. كان هو البحث عن ذاتي وتحييدها عن البساطة، والمراقبة كل المراقبة لفوضى البشر والبحث عن هدف الحياة اللاموجود.

لم أعلم عن نفسي كما علمتني موسيقى فيفالدي لقد كنت أفكر وأكتب، وأرتب أفكاري وأدرس صحتها ونظرة الآخرين لها، ثم نشلتني إلى عوالم الغرابة الممزوجة بالتفاؤل الخجول المرفوض مسبقاً. ولكني صرت أكتب ما تولده أناي، حتى صارت يداي تتحرك من دون إرادتي. فقد كانت حركات يداي تتقطع وتسرع ثم تتوقف على سلمه الموسيقي. كانت الحالة تلك، تجربة لأقصى حالات الانفعال الإرادي، وليست تلك الحالات الانفعالية بأثر عوامل خارجية قاهرة والتي نكون مضطرين أن نحتمل قسوتها عنوة.

رحت أستمع إليه وقد استسلمت لكل شيء، أستمع إليه بكامل كياني، وكأني تحولت فجأة الى ورقة خريفية خفيفة جداً، أخف من كل شيء، وأثقل من كل شيء بآن واحد، رفعتها الرياح العاتية تترامى بين تراكمات الحاضر،و التي باتت قطعة من نفسي بكل هول مفرداتها، الوجود، الحرب الأحبّة .لم أدرس مسبقاً فيما اذا كانت فكرتي مألوفة أم هي مطابقة لغيرها باللاشعور، أم هي محاكاة للواقع. لم أدرس

احتمالات النجاح أوالفشل، ومدى جدوى القدرة التعبيرية أو جودة الطرح. لقد أردت التنفيذ فقط. فرضت نوعية الأفكار تلك نفسها علي كما يفرض الحب نفسه على

العشاق، أفكاراً تفاؤلية وأفكاراً سوداوية. لأصبح ضحية اصطراع الأمزجة وضحية نفسي، أفكاراً فوضوية تأبى التنظيم والاصطفاف. كنت أعلم أني حتى لو كتبت فلن تكون الفكرة من عدمٍ محض، وهي ليست أكثر من إعادة صياغة لتراكمات الماضي ومشاهداته، وهي ليست أكثر من تدريب. هذه الفكرة التي زرع بذورها مارك توين في رأسي وبقيت وستبقى.

حدث ذات يوم ان استيقظت في الصباح وأنا ذاهب إلى عملي وكان كل شيء يبدو على غير عادة وشعرت بأني لست من كنت عليه. كانت ثقتي بنفسي كبيرة، وسألت نفسي ما فائدة تلك الطاقة التي لا تتعدى حدود الجسد؟ وما فائدة الفكر والتعمق إن لم يتعدى حدود العقل؟ وبدت لي هذه المشكلة أعقد ما قد تعرضت له في حياتي كلها. لا يمكن لأي شيء أن يتعدى حدود العقل . لا يمكن ترجمة ذلك إلى أي فعلٍ. كان الطريق يبدو أنه لن ينتهي ابداً. وكان الطقسباردا جدا ولم أكن قد تكلمت مع أحد لمدة ثلاثة أيام عن أي شيء ولم استطع أن اتناول اكثر من وجبة واحدة يومياً.

وفي إحدى اللحظات التي يسودها الصمت الشديد، وأشد أنواع العزلة، تخيلت أني هو الخلاء نفسه وأني عبارة عن

لا شيء واللاشيء هو حولي. اللامكان واللازمان !!وكل شيء مبهما غير قادر على الحركة أو التفكير، باستثناء أني كنت قادراً على سماع ضربات قلبي، لأجد نفسي بعدها أريد ان أفعل أي شيء، ولم أدري ما هو، ولعلها لحظة المعرفة او لحظة الرغبة. قررت أن أكتب، وأن أبدأ، فلا يمكنني ان أبقى ككتلة من التذمر الدائم، لا يمكن أن لا أحاول ان أجد حلولا، طالما أني أحاول أن أكون موجوداً.

كان أعقد الأوقات وأكثرها إزعاجاً، تلك التي كانت فيها أفكاري، المبعثرة الكثيرة تأكل بعضها بعضاً، ولكني كنت مشوشاً، لدرجة أني لم استطع ان أكتب جملة واحدة. حتى وصلت تلك الأفكار لمرحلة من الضغط، تـأبى بعده أن تبقى في مكانها، لتنفجر خارجة بقسوة كالحيوانات الجائعة، والتي تريد أن تلتهم أشهى فرائسها. قررت أن أكون موجوداً حتى ان لم ُيرى ذلك الوجود.. تراه نفسي المهم أن أسعى لأكون موجوداً.

الفصل الأول

كان غيلان في الثانية والثلاثين عاماً، متوسط الطول نحيل الجسد لدرجة باتت بها عظام وجهه بارزة نوعاً ما، وبالأخص عظمة الفك السفلي التي تبرز حين يدخن وكانت حنجرته تشبه سلسلتين من الجبال، يتحركان عندما يقوم بمضغ طعامه وابتلاعه.

كان يعيش في غرفته وحيداً، بعد أن سافر شريكه السابق نضال إلى إحدى المدن الشمالية لمباشرة عمله الجديد. كان غيلان جدياً منظماً، ولذلك ربما قد وظفوه كمراقب على العمال في إحدى الأسواق التجارية الطابقية. أمضى أوقاته بقراءة الكتب، وإصلاح الأجهزة الإلكترونية وذلك على سبيل الهواية وليس بهدف الربح. وسعى جاهداً أن تكون له آراءه الخاصة .أحب أغراضه (حتى تلك التافهة منها) لدرجة غريبة .

عادة ما كان يبقى في غرفته لساعات طويلة، يحملق في جدار غرفته العجوز، متعلقاً بالماضي ومفعماً بالحنين الجامح كلما ذكره شيء به. أما طموحه فكان كبيراً، يستيقظ معه ويشاركه قهوته الصباحية، حتى تأتي ساعة النوم لينام جسده ويبقى طموحه صاحياً. وأكثر ما كان يؤرقه

أنه ما كان لطموحه أن يتحقق لو استمرت حياته على نفس الوتيرة؛ فلا يمكن لآلة أن تطور نفسها بنفسها من دون أن يتم التعديل على بنيتها.

أما علاقته بجيرانه فلم تتعدى حدود المجاملات أوتبادل بعض الأغراض التي يحتاجها الجيران من بعضهم البعض. فقد كان الجميع ينظر إليه نظرة غريبة نوعا ما. حيث أن عزلته ومحدودية العلاقات الاجتماعية التي كانت تربطه بالآخرين، أثارت العديد من التساؤلات، خصوصاً تلك الجارة التي تسكن في المقابل من بيته والتي كرست وقتها لمراقبة الجيران ومراقبة تصرفاتهم، وزرع الدسائس والأقاويل.

استيقظ على صوت المنبه الذي طالما كره صوته، وسبب له التوتر والقلق، والذي جعل منه في كل يوم وفي كل مرة يسمع فيها ذلك الصوت، يتمنى لو أنه يمتلك تلك الميزة لدى بعض الناس بأن يستيقظ من تلقاء أنفسهم، عن طريق ساعتهم البيولوجية...

على كل حال كان يتناسى ذلك بمجرد ذهابه للمطبخ واعداده القهوة، وانتشار رائحتها. ربما كانت تلك الرائحة هي اكثر ما يستثيره ويحفزه عند كل صباح. بمجرد أن يشتم تلك الرائحة، ترتسم على وجهه ملامح عطوفة وكأنه قد التمس فكرة رائعة وارتاح لها. ليس ذلك فحسب، انما لم تكن تلك الملامح لتتشكل مرة أخرى، الا عندما كان يسمع صوت المياه تملأ خزانه في العلّية بعد 3 أيام من الانقطاع...

ربما لم يكن ليشعر بالارتياح لأشياء سارة أعقد من ذلك.

خرج في إحدى الأيام الشتوية الماطرة وكان الجو بارداً قليلا. لطالما أحب المشي في هذا الجو المثالي، واضعاً يديه في جيوب معطفه الأسود السميك، والذي كان يضفي على شكله ملامح مهيبة، وشخصيةً نافذة. ربما أحبه لأنه احتفظ برائحة مميزةعتيقة. وحين يشعر بالدفء، يخرج إحدى يديه ومعها علبة السجائر ليدخن ريثما تأتي الحافلة التي تعبر في نهاية الشارع. كانت هذه أروع 10 دقائق يفضلها غيلان. فقد أرجعت به الزمن إلى الوراء، ليتذكر ذات اللحظة، ويعاد سيناريو انتظار الحافلة، عندما كان يذهب الى كلية الكيمياء أيام الشتاء. لم تكن حياته الجامعية سعيدة آنذاك بكل الأحوال.. ولكن هذه اللحظات أسعدته بالرغم من بساطتها. كان حتى لسجائره طعم مختلف ربما طول الدقيقة كان مختلفاً ايضاً. وانتابه شعور بحمق أيامه الفائتة، لكنه أشتاق الى بساطتها، وسذاجتها، وقصور نظره وطموحه آنذاك.

أتت الحافلة التي وقفت للحظة وأوشكت على المغادرة. وغيلان مستغرقا في تفكيره. صعد مستعجلا وأخذ مقعداً منفرداً الى الجهة اليمنى من الحافلة. وبعد برهة قصيرة أشاح الشاب بناظره الى الأمام الى المشهد العام. ركاب متناثرين على المقاعد، منهم عجزة يقبضون بأيديهم على وريقات نقدية هي أجرة الحافلة .

أخذ يراقب أشكالهم وتقاطيع وجوههم وأرعبه ذلك، ثم رأى مراهقاً ارهقت بشرته البثور. لم يسره غيلان ذلك. كان حاقداً على تلك الفترة العمرية التي عاشها، بقدر اشتياقه لمرحلة الطفولة المفعمة بكل ما هو جميل وشقي. ارتفع صوت الأغاني الصباحية التي أحبها غيلان كثيراً. كل ذلك يهيئ له مشهداً قد أرجعه إلى أحداث غابرة ومشاعر غريبة، يختلط فيها الفرح والحزن والندم والمحبة كانت مشاعر غريبة كوجوه الناس من حوله.

نظر من النافذة إلى كل شيء يمر أمامه، وكأنه يريد حفظ كل شيء، راقب أسماء المحال التجارية، وتصرفات الموظفين الذين يتحركون ضمن أروقة البنوك، والموظفين الذين يقومون بركن السيارات، وعمال التنظيف الفرحين لكل شيء مهما كان بسيطاً. والفتاة التي ترتدي أقراطاً كبيرة، وملابس زاهية جداً، ووشاحا ازرق تدثرت به، حيث اختفى عنقها تحته وهي تدخن أمام متجر الألبسة الذي كانت تعمل به وهي تنتظر الزبائن الذين لا يتوافدون في مثل هذه الساعة التي تمضيها وهي تتحدث عبر هاتفها. فهو يراها كل يوم وبنفس التوقيت، وبنفس الوضعية ولربما كانت تتحدث دائما بدون انقطاع. ثم راقب بعض السيارات التي تمشي بمحاذاة الحافلة وملامح سائقيها وخصوصا لتلك الفخمة منها.

نزل غيلان وتابع سيره إلى السوق التجاري الذي يعمل

به. سار عبرغراج السيارات، وراقب عمال التنظيف وطريقة مشيهم. لم يكن هناك أي شيء، او أي تفصيلة او حركة تقع على مرمى نظره، إلا وينتقدها ويحلل عيوبها ويربطها ببعضها بعضاً. فهو يرى كل شيء ويسجله ضمن دماغه، وكأن رأسه قد تحول إلى آلة تسجيل ذات شريط ممغنط . لم تكن لتلك الميزة فائدة تذكر ولكنها كانت مزروعة في شخصيته ، حيث أن كل شيء يراه هو قابل للنقد مهما كان مثالياً.

وصل إلى السوق والذي كانت غرفة المدير تقع في مقدمته . حيث تتيح له أن يرى كل شخص يقدم أو يغادر من الموظفين أو حتى من الزبائن. وحين رأى غيلان، نظر إليه نظرة حادة نوعاً ما من خلف نظاراته القليلة الثخانة واللامعة، جالساً على مقعده الجلدي البسيط ومرتدياً قميصاً أبيضاً بغاية النظافة. اقترب غيلان منه وأخبره أن الحافلة كانت تسير ببطء، وأن هناك سيارة كانت تعيق الحركة، ولكن المدير رفض هذه الأعذار وقال له: لا يمكن لك ان تتأخر كل يوم، وفي كل مرة تحمل عذراً جديداً. لم يتفوه غيلان بأي كلمة، ولكنه كان متأكداً أن آخر مرة تأخر بها كانت منذ حوالي الشهرين، وتمنى لو قال له أن ذلك غير صحيح ،وأنه ليس غبياً ليعتقد فعلا أنه كان يتأخر كل يوم. وأنه ليس هناك داع للكلام المتشنج بهذه اللغة العصبية جداً، من أجل 4 دقائق تأخير لاغير!! لكنه لم يكن ليقول أي كلمة

واكتفى بهز رأسه نحو الأسفل. فقد كان شعار غيلان الدائم أنه: »لا يمكن أن تكون بمأمن عن أي شيء«.

أمسى هذا الشعار لا يفارقه ابداً، يرافقه كظله، و يتماهى في كل جوانبه الفكرية ويتدخل بمعظم تفكيره، ويجثم على صدره كالصخرة الهائلة، ويبرز في مخيلته فوراً عندما تقتضي الضرورة أن يظهر. هذا الشعار هو ملك نفسه يظهر متى شاء، ومتى رأى أن ظهوره مناسبا، ولم يكن لغيلان أن يتحكم به أبداً. تراءى الشعار فوراً لغيلان لحظة إنهاءه لحديثه مع المدير، ففكر غيلان بأنه من الممكن لو اعترض على كلام مديره، أن يفصله من العمل الذي يعيش من أجره، حتى ولو كانت المسألة تافهة بنظر غيلان ولكنها قد تكون ممتعة بالنسبة للمدير.. وهو الذي يستطيع أن يحضر موظفاً جديداً بعد ساعة واحدة من فصله ،وبذلك فلا داع لهذه المخاطرة. ثم انصرف غيلان، وهو يفكر بكلام المدير، متمنياً لو أنه قال له كل ما يدور بخلده من مبررات ، ومشاعر ، وانتقادات لتصرفات المدير المتسلطة حتى ولو كانت بدافع النظام.

ارتدى غيلان قميص العمل الموحد ونزل إلى ساحة السوق بأجنحته المتنوعة، وتوجب عليه أن يراقب عملية صف البضائع على تلك الرفوف.راح يفكر بكل شيء، شكل الرفوف ، تكلفتها ، ثم تكلفة السوق ككل، وأن صاحب السوق هو رجل يعيش بهناءة وراحة بال!!

وكيف أمكن له ان يصل لامتلاك مثل هذا السوق الضخم والحديث؟. ثم فكر بأنه لابد أن مالك المعمل الذي يصنع صنفاً من هذه البضائع هو أغنى منه، ولا بد أن حياته أكثر سعادة. ثم استغرق بالتفكير وتخيل نفسه أحد هؤلاء الأغنياء المترفين، وتخيل كيف سيصبح له مكتبٌ خاص ذو أرضية خشبية، وسكرتيرة رائعة الجمال، وبعد سلسلة من التخيلات ظهر له شعار (لا يمكن أن تكون بمأمن عن أي شيء) .ليفكر بمنطقية أكثر، وأن هؤلاء الأشخاص هم أشخاص معرضين للسرقة والاغتيال ومختلف أنواع الأخطار. ثم أنه حتماً لديهم أسر مفككة وأن أولادهم يعيشون بلا أهداف. سخر غيلان باستهزاء من نفسه، اذ لا يمكن المغالاة في مساوئ الثروة التي يتمناها أي شخص، ولا ضير من أن يكون الإنسان غنياً من دون أن تكون حياته ذميمة أو قذرة.

بعد عدة ساعات أنهكه التعب، وحان موعد استراحة الموظفين . ذهب ليستريح قليلا في بهو السوق الواسع والذي يحتوي العديد من الطاولات الصغيرة الحجم، ثم أخذ فنجاناً من القهوة وأخرج سيجارة . تلك اللحظات بالنسبة ل غيلان هي الأمتع في وقت الاستراحة . ولكن سرعان ما تلاشت تلك المتعة الخفيفة تدريجياً، مع قرب انتهاء سيجارته وفنجان قهوته، حين كان ينظر إلى الجزء الأخير منها بأسى، متمنياً لو أنها تعود وبلحظة الى بدايتها فيشعلها

من جديد. ولعل هذا الشعور كان يرمز الى الوقت الذي انقضى ولم يكن بإمكانه أن يستعيده. أمكنه بالتأكيد إشعال واحدة أخرى ولكنها لن تكون بلذة الأولى وبنفس الكمية من الوقت الذي يسمح له بالتفكير والتأمل مع رشفات القهوة الخالية من السكر.

كان ومنذ بداية جلوسه في البهو ينظر إلى إحدى الفتيات التي تعمل في صف الرفوف ، ولكنه لم يتحدث معها سوى مرة أو مرتين بقصد السؤال عن أماكن وجود البضاعة الجديدة. بدت ممشوقة القوام ولكن تفاصيل وجهها رغم جمالها أوحت بالغباء، كانت تحمل هاتفها طوال الوقت إما لمراسلة أصدقائها، او للعب بعض الألعاب الشائعة لفترات طويلة.ثم فكر كيف يمكن لتلك الحسناء أن تبقى بمثل هذه الوضعية طيلة فترة الاستراحة، لابد أنها فارغة تماماً. ولكن غيلان سرعان ما كان يفكر بفكرته وبالفكرة المضادة لها ، مفسراً بأنها بدت سعيدة بفعل ذلك، كما شعوره حيال سجائره وقهوته ، ثم تمنى لو قال لها كم هي حمقاء. وكم كان سيكون سعيداً لو قال لها أنه يرغب بتكسير هاتفها وأنه يرغب بمصادقتها، وأنه يكره منظر قدمها التي تبدو صغيرة جداً بذلك الحذاء الأسود، وان شعرها سيكون اجمل بكثير لو غيرت تسريحته.

سمع صوت الجرس منادياً الموظفين بالتحرك إلى

أماكن عملهم، وهم غيلان بالمغادرة ولكنه ضحك. لأنه

تخيل الموظفة العاملة عبر جهاز الإذاعة التي طلبت من الموظفين التحرك. يا لسخافة هذه المهنة !!.. كم هي مرتاحة ولا تستحق هذا الأجر الذي تأخذه، ثم تخيل أن المدير لا بد أنه كان قد وضعها بمثل هذه الوظيفة ليتسنى له معاشرتها لاحقاً. تابع سيره إلى الجناح المعتاد ليتابع عمله، وقد بدأ الجو خارجاً يميل الى الظلام وهو وقت محبب. خصوصاً حين تبدو الإنارة داخل السوق أكثر جمالا، والحركة أكثر ازدحاما، فيأتي الجميع بعد فترات قيلولتهم ليقوموا بالتسوق. لم يحب غيلان الازدحام كثيراً، ولكن ذلك كان يمتعه عبر مراقبة الزبائن، وهو ما يجعله يدخل ضمن موجة تخيلاته المحببة، والمراقبة عن كثب والدخول في دوامة النقد اللانهائية، ومراقبة تصرفات البشر التي كانت تزيده شقاءً وبغضاً. هؤلاء الذين جاؤوا ليتبضعوا، عربات صغيرة تسير على عجلات او تلك السلال التي تحمل باليد تروح جيئةً وذهاباً. منها الممتلئ والذي يدل على يسر حال أصحابها، ومنها الذي يبدو شبه فارغ والتي تدل على شخصية حاملها. فهو لابد إما سائقاً أو عاملا أو موظفا صغير الكسب. أما غيلان فلا يزال حتى الساعة منهمكاً بمراقبة الرفوف. حتى مر بجانبه أحد الأشخاص النحيلين برفقة زوجته السمينة، والتي كانت تومئ بيدها الى قسم اللحوم ، وتقوم باستعجال زوجها للذهاب إلى ذلك القسم، ولكنهما وقفا بجانب غيلان لانتقاء بعض الأنواع

من المعلبات .دار الحديث بينه وبين زوجته حول سلوكها الخاطئ بالتغذية، وأنه نبهها مراراً وتكراراً بأن أولادها قد يصبحوا بلا أم إذا استمرت على هذا المنوال، وأن عليها أن تكون أكثر وعيا وإدراكاً. بينما كان الزوج يتحدث أخذ علبتان من السبانخ ووضعهما في السلة قائلا: هكذا يكون غذاء البشر، الحديد والمعادن أفضل من أن تموتي في شحومك يا عزيزتي.

الحديد!!! فكر غيلان أن هذا الرجل لا بد محبٌ للحياة، وأنه أشبه بجد صديقه الذي أصبح عمره 3 سنوات بعد المئة، والذي كان يأكل قليلا جداً ، وأكثر ما كان يأكله هو النباتات. كان يقتدي بعبارة جورج برناردشو: إننا نحفر قبورنا بأسناننا كل يوم. لكن غيلان نظر إلى ذلك الرجل، وتمنى لو قال له أن نسبة الحديد في السبانخ ماهي إلا إشاعة، وأنه قرأ ذات مرة أن عالماً سويدياً قد أخطأ بوضع النسبة العشرية عند تسجيله لنسبة الحديد بالسبانخ، مما جعل النسبة أكبر بعشرة أضعاف، ثم نظر للرجل وأنعم نظره في جسده النحيل. ذلك الذي بدا هزيلا وبحاجة الى القليل من اللحوم ليحدث التوازن، وأن سيارة ما من الممكن أن تدهسه فال تفيده نباتاته تلك. لكنه اتفق مع نفسه بالنهاية بأن الرجل على حق وأنه يفكر بعقلانية. ربما تذكر غيلان نفسه وانه يميل الى النباتات اكثر من اللحوم، وحين قرر أن يشاركهما الحديث ويخبره عن قصة السبانخ؛

تذكر غيلان أن ذلك ليس ذي نفع، ومن الممكن أن يسبب بذلك إحراجاً لزوجة الرجل، وقد تشتكي للمدير عن تدخل الموظفين بأذواق المستهلكين، وبذلك كانت »لا يمكن للإنسان أن يكون بمأمن عن أي شيء«

ظهرت له فجأة وبدون سابق إنذار. نظر غيلان إليهما برفق وقال لنفسه: حتى لو أخبرتهم بذلك فليس للموضوع قيمة. فما النفع الذي سيضفيه ذلك؟ وما النفع الشخصي الذي سأجنيه حين أخبرهم؟ هل سأكبر بنظرهم أكثر؟! وحتى لو فعلت؛ فمانفع ذلك؟. أم أنه سيستهزأ بي؟. ثم أمال رأسه وعاد إلى ترتيب الرفوف.

وقف جلال إلى جانبه في الرواق، وراح يسأله عما اذا كانت وضعية العلب على الرفوف صحيحة أم لا. راح يسأله ذلك على نحو متقطع 4 أو 5 مرات في اليوم وحين يقول له غيلان: أنها جيدة .كان يشعر وكأن جبلا قد أزيح عن كاهله. أما اذا حدث وأن أهمله غيلان فكان جلال يذهب لآخر الرواق بحيث لا يراه أحد، ويقوم بلمس الجدار ثم يعود، وتبدو على وجهه ملامح الضيق والتعب. اتضح لغيلان أن الرجل يعاني من الوساوس القهرية الطفيفة. أصبح يساعده بقول أنها جيدة لكي يوفر عليه العناء، ويريح مشاعره المكبوتة. لم يكن أحد قد انتبه إلى ذلك سوى غيلان الذي كان شديد الإدراك وكل شيء في مرمى انتقاداته.

كل التفاصيل وكل الجزئيات التي تمر أمام عينيه بعناية .

كل شيء ينطبع صورياً في مخيلته الخصبة. تمنى غيلان لو أخبر جلال أنه يعلم بذلك، وبأن ثمة عقاقير غالية الثمن بعض الشيء تساعده على التخلص من ذلك، توفر عليه مشقة سنوات قادمة. سنوات ليكتشف أصلا ماهي علته، وأنها ليست بالشيء المعيب، وأن ثمة عظماء عانوا من تلك الأعراض. هذا غير الذين لم يصرحوا أساساً بأنهم مروا بمثل ذلك الأمر، وأن يخبره بقصة هاورد هيوز.. فاحش الثراء ومالك إحدى أكبر شركات الطيران في عصره، والذي أنتجت عن شخصيته فيلماً هوليودياً رائعاً، والذي كان يعاني من الوساوس المرضية وخوفه من الجراثيم.

لكن عبارة »لا يمكن أن يكون الإنسان بمأمن عن أي شيء« كانت أسرع إليه والتي جعلته يفكر بأن جلال سيظن أن غيلان يعتبره مجنوناً، وأنه يقدم الافتراءات ولن يعرف ميكانيكية تفكير غيلان.أنه شخص متفهم لأبعد الحدود، وأنه يعطي كل شيء قيمته الفعلية، ولن يظن به السوء ابداً. وبتطور ما قد يتسبب بجعله عديم الإنتاج، ومحبطاً. هذا إن لم يترك العمل، أو المدينة بأسرها.

ضحك غيلان ضحكته المعتادة وعاد ليمحص الرفوف.

انتهت ساعات العمل ، مثلما ينتهي أي يوم سابق. أفكارا تفترس عقله وآلاف المشاهدات العابرة، بشر، فوضى، حسد، وتكرار. خرج من باب السوق التجاري الذي امسى

خالياً كئيباً. ربما كان السوق أشبه بالبشر، يمتلؤون بكل شيء، ويفرغون من كل شيء بلحظة واحدة. خرج غيلان إلى مقدمة السوق الذي كان يغص بسيارات الأجرة، وكانت إحدى السيارات تقل راكباً في المقعد الأمامي. سأل السائق غيلان عما إذا كان طريقه يتوافق مع طريق الراكب، وقد أجاب غيلان بالنفي لكن السائق أخبره أنه يستطيع ايصاله مقابل زيادة بسيطة. قبل غيلان بذلك وصعد إلى المقعد الخلفي. بدأ السائق كلامه بأنه قد أمضى نهاراً متعباً، وأن اللقمة دائماً هي مغمسة بالدم، وهو مثل مألوف حتماً بالنسبة لغيلان، وماهي إلا ايحاءات لكي يتحصل على الزيادة من غير نقاش، وراح يشتم كل من يمر أمامه، بيد أن غيلان إضافة لاستماعه إلى حديث السائق، كان ينظر للراكب الذي بدا مرتبكاً قليلا، وأحكم قبضته على محفظة كتف صغيرة. استطاع غيلان أن يميز نظرات الراكب المتوترة، والتي كانت تميل الاستشعار أي حركة من خلفه. فعلم غيلان ولو أنه كان غير متأكد، أن هذا الراكب هو دائم الحركة بالليل، وهو خائف من النشل على الأرجح. بدأ السائق بعد سماعه إحدى الأخبار العاجلة عبر الإذاعة، بالتحدث عن ما يجري من أزمات سياسية، وتعثرات اقتصادية، مبدياً رأيه السياسي من دون مواربة. لكنه بدأ يتحدث بطريقة وكأنه يكرر ما سمعه في الإذاعة، فهو لم يضف أي شيء يفيد بأن له رأياً خاصاً. فقط بعض من الثقة مزيفة ، والتكرار الاعمى ، و

بلاهة، ومفردات ضجت برأس غيلان حول هذا العالم الغريب. كيف أن الثلاثة الموجودين في سيارة واحدة فصلتهم مسافات فكرية شاسعة ..

رجلٌ موتور خائف من النشل، ورجلٌ ببغاء يحاول فتح تجاذبات سياسية، وغيلان الذي كان يراقب بشراهة كل شيء. رغب في طمأنة الرجل أنه شخص محترم ولا ينوي أي سوء. أما للسائق الكهل فأراد أن يقول له أنه إمعة، ولا يرى أبعد من أنفه، وأن عليه أن يبقى صامتاً لأعوام حتى يصبح ناضجاً كمن هم في مثل عمره ولكن.. كيف له أن يدخل في تلك المتاهات مع غرباء، لا تتعدى معرفته بهم أكثر من 10 دقائق؟ ما نفع جعل سائق السيارة يعلم بأنه مغفل إن كان سيبقى مغفلا؟!!،

وصل غيلان إلى الحي الذي يقطن به ونزل من السيارة وتوجب عليه المشي قرابة 7 دقائق ليصل إلى منزله. كم أصبح الجو بارداً وجميلاً ببؤسه وعنفه ، شوارع خالية، وبيوتاً دافئة. كره غيلان عدم تحدثه بأي شيء، وكيف أنه برر ذلك العزوف عن مصارحته الناس، بتلك المبررات السخيفة.

أكثر ما آلمه أنه رأى نفسه شخصاً متفرداً، يستحق أفضل مما هو عليه، ولكنه لا يستطيع إلا أن يسير وفق السكة المعروفة ليصل إلى عنوانه المنشود، بأقل خسائر ممكنة. لا يستطيع أن يترك السكة، وأن يذهب إلى الحقل الموازي، المليء بالوحل والأحجار والحيوانات الشاردة. أن يعبر جبلاً ، ثم نهراً

ليصل إلى نفس المكان الذي سيوصله إليه القطار على تلك السكة بطريقة اكثر أماناً. كم كره ان يكون جباناً وخانعاً.

كان الحي خليطاً بين الفقراء والطبقة الوسطى، وسيارلت متنوعة، ونباتات زينة، وبجوار منزله كان هناك حانوتاً، صاحبه دائم الابتسامة ويتكلم بوتيرة سريعة. حيث يبدو نصف حديثه غير مفهوم. فلا يسمع من كلماته تلك إلا نغمة سريعة. والجدير بالذكر أن هذا الرجل كان يبدو متديناً ودائم القول بأنه لا يستطيع أن يغش زبائنه كسائر الباعة. ليدرك غيلان وفي كل مرة يدخل فيها، ان ذلك الرجل لا يكف البحث عن أي وسيلة غش ممكنة، في الوزن أو بنوعية البضائع، أو بأسعاره التي لا تتناسب مع جودة خضرواته الذابلة، اواي من ألاعيبه القذرة عند إعادته النقود للزبائن. جميعها اختبأت تحت طيات وجهه السمح. كيف باستطاعته العودة لتوبيخ ذلك الرجل المحترم الشريف. للتو بعد أن أنكر أنه أعطاه ورقة نقدية من فئة الـ 10 دولار وأنها كانت 5 بكل تأكيد، وهو الذي يستحيل أن يخطأ في حسابته مع الزبائن. ماذا لو عاد اليه حقاً يوماً ما وقال له أنه إنسان دجال، وأن الذنب ليس ذنبه، وهو الواضح كل الوضوح بنفاقه الديني، الذي يستتر خلفه. بل ذنب سكان الحي، وغيلان اولهم، الذين كانوا يثقون به، وأكثر من ذلك بل يتباركون برؤيته ويعودون اليه في كل مرة مكررين الخطأ نفسه!.

لم يكد غيلان ينهي فكرته حتى رأى صاحب الغرفة التي يستأجرها غيلان يجلس على شرفته منهمكا بإصلاح قطعة من الخردة المعدنية البالية، والتي ربما وجدها في الشارع، وأراد أن يستغلها لغرض ما يوفر عليه شراء قطعة جديدة. لم يفكر غيلان بأي شيء وقتها، إلا الإسراع للوصول إلى الباب، من دون أن يراه صاحب الغرفة الذي سيطلب منه الأجرة قبل انقضاء الشهر بيوم أو يومين، ولكن محاولته تلك باءت بالفشل، ليسمع صوتاً قادماً من أعلى:

-لا يمكنني في كل شهر ان أكرر السيناريو ذاته، وأن أعلمك واجباتك!!!...

ثم تكرر أكاذيبك ووعودك، التي لم تتغير منذ سنة، والتي لم أعد قادرا على تحملها. وأظن أن الجدران قد أدركت، متى يتوجب عليك ان تدفع أيها السيد المحترم!!!.

نظر إليه غيلان بسخرية وقال له بصوت خفيض وهادئ:

-أنت على حق فالجدران هي أذكى من البشر.

وتمنى لو قال له أنها اقل جشعاً أيضاً .

- حسناً، سأدفع غداً في مثل هذا الوقت.. لا تتعب أعصابك أيها العم.

كانت إحدى المواقف الحياتية التي تجعل غيلان يشعر بالضيق، وتجعله يذم العدالة الإنسانية، بأفظع العبارات، والتي جعلت أشخاص لاقيمة لهم يتحكمون بمصائر

أشخاص يقدرون الحياة، ويتمنون أن يروا كل شيء فيها، ويستمتعوا بها. وصل إلى غرفته أخيراً وقد أنهكه التعب الجسدي والذهني. لم يحدث وأن هدأ دماغ غيلان عن التفكير بأي شيء، حتى وهو يغسل صحونه، فقد انتابه شعورٌ غريب بعدم الارتياح، وشعر بهؤلاء البشر يركضون ضمن مساحات رأسه، وسمع صراخهم وهم يؤنبونه وأن أحداً لم يطلب منه تصحيح أخطاء البشرية. جلس غيلان قليلا بسكون تام قبل ان يأخذه النعاس. جلس تحت ضوء غرفته الخافت، غرفته الباردة الرطبة، التي بهت طلاء جدرانها، وبدأت تتساقط كتل منه. جلس يفكر بملامح زميلته التي رآها في بهو الموظفين،ثم انتابته مشاعر جنسية طبيعية كسائر البشر، وتمنى لو قال لها ما يشعر به من امتزاج مشاعر الإعجاب مع الشهوة. لعل الكلمة الثانية

كانت لتنسف أي شيء. كيف يمكن لأحد أن يتقبل ذلك؟ فلا بد أن ذلك سيجعلها تفكر بأنها رخيصة، ولن تعير مشاعره أي اهتمام. مشاعره التي هو بحد ذاته لم يدرك ماهيتها، فيما اذا كانت مشاعر إعجاب أو حب، فهو لم يقتنع يوما بأن الحب قد يبنى من دون تواصل وتبادل أفكار مشتركة. فالحب هو توافق لأبعد الحدود، وليس كما تصوره تلك الكتب التجارية التي يقبل المراهقون على شرائها، والتي تعتمد على صف عبارات منمقة أقرب ما تكون للمثالية الزائفة، عشاق تائهون مستعدون للتضحية،

ومستعدون لتحدي كل الظروف، الصدق الذي لابد ان يشوبه الكذب . كم هي كتب تافهة!

وإنه لمتأكد بأن كلمة واحدة تتعارض مع ما رسمه عن فتاة أحلامه كانت لتجعله ينفر منها، حتى لو كانت الفتاة تمتلك جمال هيلين طروادة.

اعتصر في قلبه ذلك، واقتنع أكثر بفكرته. لو أن الإنسان تكلم كل شيء يدور في رأسه، لما تزوج رجل وامرأة، وما عمل جمع من الموظفين مع بعضهم، وما استقل أحد سيارة اجرة، أو عاشت عائلة مع بعضها تحت سقف واحد، أو استمرت البشرية يوماً واحداً من شدة الفوضى التي ستحدث. لذلك لا يمكن أن يعيش الإنسان بمأمن عن اي شيء في هذه الحياة إلا بهذه الطريقة.

اعتاد غيلان أن يجلس في فراشه لمدة 6 دقائق، ليتمنى في بداية يومه الأفضل، ويبتسم اذا ارتاح لفكرة ما. كم هو معقد مفهوم السعادة، رغم كل محاولات البعض لتبسيطه. ثم نهض لغسيل وجهه وصنع القهوة، وكان يشعر في صبيحة كل يوم أنه لا بد للحياة أن تحمل منحى آخر أكثر جمالاً ،وأن لديه هواجس زائدة بالطبع لم تكن رهاباً. غيلان يعي كل شيء، واعتاد أن يكون دقيقاً حتى في وصف نفسه وفكر في تلك الجملة اللعينة التي تقضي على متعة كل شيء، وتجلب متعة كل شيء في آن واحد. كيف يكون الامان التام؟؟كيف لا يمكن لحركة بسيطة سخيفة، أن لا

تولد رد فعل يجذب جملة من ردود الأفعال الكارثية والمدمرة؟ ألا يمكن أن يكون هذا التفكير خاطئ !!.

وفجأة فكر غيلان أن عليه أن يتحرك بسرعة قبل أن يتأخر، وإلا فإنه سيسمع خطاب الكراهية من مديره التافه، الذي كان يتفق مع سماسرة محددون لشركات معينة. يختار بضائعهم لقاء عمولة شخصية، لا تحتسب في دخل السوق، ولايعلم بها المالك، وقد علم بذلك غيلان عن طريق ابن إحدى السماسرة الذي كانت تربطه به علاقة ودية. كم أن ذلك سيكون ممتعاً لو أنه جعل المدير يتوسل إليه كي لا يفشي بهذا السر، وتخيل نفسه يفرك بحذائه قميصه الأبيض، ولكنه كالعادة رأى أن ذلك لن يؤثر على أي شيء، وسيضع غيلان في دائرة الخطر، حيث سيبدأ التحقيق، وسيأتي المدير وسيسبب ذلك المتاعب للسمسار وابنه. بنهاية المطاف لن يكرمه مالك السوق ولن يضعه مديراً، فهو قد يتغاضى عن المدير وتصرفاته، وتنتهي الحبكة باتهامه غيلان بأنه كاذب لعين له ثأر شخصي معه، أو أن هناك ثأراً شخصياً بين السمسار والمدير.

....

دخل غيلان إلى السوق في موعد عمله المحدد، وقد بدأ نهاره نشيطاً متفتح الذهن، و متشوقاً لرؤية ليلى التي شعر بجمالها في الأيام الأخيرة، وأخيراً..

علم اسمها حين رآها تهرول، بعد أن سمع اسمها عبر مكبرات الصوت، فشعر غيلان بفرحٍ كبير، وتلهف لكي يحين موعد نزوله لبهو الموظفين. ارتفع صوت الأغنيات التافهة التي وضعتها موظفة اذاعة السوق عبر المكبرات ، الأغنيات الأكثر رواجاً في الأسواق، حيث يصبح تكرارها لا إرادياً في الذهن، وهو الشيء الذي كان يحتقره غيلان كثيراً. فكر بأذواق هؤلاء الموظفين الذين يعشقون تلك الأنواع المقززة من الأغاني والتي لا تشبع الروح نهائياً، إنما تعطل الجملة العصبية. فمعظمها يجمعها كلمات مترابطة، كالخيانة والشوق والحب من النظرة الأولى. بالمحصلة هي لا تضيف أي جديد، وإنما تجعلك تسمع هراء يعطل التفكير بأي شيء ، ولعلها كانت أشد ضرراً على صديقه جلال، الذي كان يركز على ألا يدخل في دوامة وساوسه. بينما كان غيلان شارد الذهن، كالعادة مرت من أمامه امرأة قصيرة بشعر غير مشذب ، وترتسم على وجهها ملامح الوجوم والتربص. وبدأت تنهر زوجها أن لا ينتقي أي شيء من على الرفوف إلا إذا وافقته الرأي. ثم بعد قليل، بدأت تشتمه لأنه نسي الورقة التي دونت عليها طلباتها، ووبخته لأنه دائم النسيان وعديم النفع، وانتهت الى أنه لا يجيد تربية الأولاد وأنه عالة على المجتمع وأنها نادمة على إنجاب 6 أوالد منه، ولولا جهودها لنسي أسمائهم جميعاً، وعليه لاحقاً ألا يرافقها إلى أي مكان فيه حشدٌ من البشر.

أثار ذلك حنق غيلان وتمنى لو قال لها أنها سافلة، وأنها حتى لو كانت على حق، فليس لها أن تتكلم مع زوجها بهذه الطريقة، ولكنه وكما كان دأبه يومياً، دائم الاقتناع بأن ذلك غير آمن على الإطلاق. فامرأةٌ بهذا الجبروت لابد أنها قد تتصرف على أي نحو، وقد تجعل منه حديث السوق. قد تحشد حوله الناس بغضون ثواني قليلة، هذا ان لم يتعرض للتعنيف الجسدي. لم يمضي على مرور الرجل وزوجته سريعاً، حتى جاء شابان بسيطا الهيئة احدهما يرتدي ثياباً رثة. وكان يرتدي ساعةً قد توقف بها عقرب الثواني ، أو على الأغلب كانت متوقفة كلياً، ولكنه كان يلبسها لأنه اعتاد ذلك لا أكثر.

تركز محور حديثهما حول كل سعر لبضاعة في السوق، وأهمية أن يوفرا بكل سلعة قرابة الربع دولار، وهو شيء جيد طبعاً . راقبهما حتى النهاية ليدرك أن مجمل ما قد اختاروه، لا يتعدى بضعة علب من السردين وانهم قد وفروا دولارا واحداً، ومن سياق حديثهما تبين أنهما يقطنان بإحدى الضواحي البعيدة، وأن أحدهما وفقاً لتصرفاته كان يهدر دولارا لأتفه الأسباب، أو أنه قد يضيع 10 دولارات من جيبه في أي لحظة بسبب تصرفاته الفوضوية. وأكبر دليل على ذلك هو هاتف أحدهما الذي وقع مرتين متتاليتين في غضون 5 دقائق، ولذلك كانت الفكرة واضحة لغيلان، وما تمنى أن يقوله كان واضحاً، وليس على هؤلاء إلا أن يكونوا أكثر فطنة، وما من داعٍ بعدها لكي يقطعوا تلك المسافة من أجل توفير دولار واحد، ولكن غيلان بدا منطقياً فقط حين تذكر مالك الغرفة

التي يستأجرها والذي يملك اكثر من 6 هكتارات من الأراضي و7 محال تجارية. هذا غير البقية الباقية التي لم يكن يعرفها. تذكر أن تلك الخردة التي كان يبردها، والتي وجدها في الشارع كانت ادنى قيمةً من دولار واحد ،
واستحقت منه زهاء ساعة من العملٍ الشاق، والحق كل الحق مع هذان الشابان المسكينان الفقيران.

بدا السوق أقل ازدحاما، وهدوءا، ولكن من الممكن وفي أي لحظة ان يمتلئ السوق بسرعة مباغتة.أسرع غيلان بتدوين ملاحظاته عن السلع الناقصة والتي فرغت من الرفوف، وذهب الى الناحية الأخرى من الرواق، الذي كان أقرب الى قسم المحاسبين على الصندوق، واسترعى انتباهه حركات المحاسب رقم 2 الذي كان يتعامل مع العمال والموظفين الميدانيين بطريقة بغيضة. كان يمازح الفتيات الذين يعملون بجانبه بدعابات تافهة تدل على انحطاطه، وكانوا يضحكون باستمرار. ربما كانوا يشبهونه، أو متوافقين معه لأبعد الحدود. تذكر غيلان حين كان يراقب نقل صناديق المياه الغازية، حين مر بجانب المحاسبة الشقراء، فسمعها هي وصديقها تتحدثان عن صديقتهم التي سافرت إلى لوكسمبورغ. تفاجأ غيلان حين سألت زميلها البغيض اين تقع تلك المدينة؟ فأجابها بأنها: ربما في ألمانيا أو بريطانيا وأنه قد سمع باسمها من ذي قبل.

ضحك غيلان باستهزاء ممزوج بازدراء واحتقار شديدين. لوكسمبورغ!! مدينة!!.

لقد كانت الفتاة أكثر بغضاً، واستفزازاً، بأجوبتها المتغطرسة وغرورها الكبير. لم يرفع غيلان ناظريه عنهما. أراد أن يذهب ويجعلهما محط استهزاء الجميع، وأن يوجه لها خطاباً هوله أشد من الضرب والتعنيف، ولكن ما الفائدة من كل هذا؟ سيكون هو المذنب وسيكون هو المتخلف الغوغائي، الذي يتهجم على الشباب المثقف، والذي يعتمد عليهم السوق، ويقدم لهم الرعاية والتأمين، وبدل تعويض من شتى الأنواع، وهنا قد تأثر غيلان بذلك جداً، وشعر بالانفعال والوحدة. حتى أتى ذلك الصوت القادم من مكبرات الصوت، مبشراً ببدء الاستراحة، وحين وصل إلى بهو الموظفين جلس على طاولته المعتادة وبدء بشرب قهوته، وكانت الصدمة الغير متوقعة.. حين أحضرت ليلى غدائها، ودارت بين الطاولات تبحث عن مكان للجلوس، ولم تجد إلا جوار غيلان فارغاً. في الحقيقة كان هناك مكاناً فارغاً آخر بجانب فتاة وحيدة، ولكن يبدو أن ليلى فضلت الجلوس بجانبه. ربما شعرت بغرابة نظراته اليها، أو أن الصدفة قررت جمعهما وهيأت الأجواء المناسبة. سألته الجلوس بصوت خافت وهادئ، وكأنها سكبت كل أنوثتها في ذلك الاستئذان، فوافق غيلان على الفور، وشعر بأنه سوف يتصبب عرقاً، وبدأت سيجارته تنفض عنها التبغ

المحترق بفعل رجفات يده. سأل غيلان نفسه التركيز وعدم تفويت هذه الفرصة لكي يقوي صداقته بها، فأخبرها بأنه كان يراها دائماً وأنه انزعج ذات مرة حين قامت بكسر إحدى التحف الزجاجية، التي كانت ترتبها، وأنه تمنى لو استطاع مساعدتها. دام الحديث لمدة نصف ساعة كاملة، سعى غيلان خلالها محاولاً في كل ثانية جعلها تفكر بأنه شخص مثالي، وأنها بحاجة لمثله في حياتها. كان هذا أسلوب غيلان في التقرب من الأشخاص الذي يريدهم، وانتهت تلك الجلسة بودّ، ولكنه لم يطلب رقم هاتفها أبداً. فقد كانت تلك العبارة المزعجة تشاركهما الجلوس على تلك الطاولة، وتمنع غيلان من أن يخرج عن نطاق الكلام الرسمي، لكنه ّأصر بان الأيام القادمة ستهيئ له ما يطلب. أصبح غيلان يراها كل يوم ويجلس معها طيلة مدة استراحتهم، لكنه كان يستمع لنقاط حديثها الرئيسية ومن ثم يستغرق في تفكيره ناظراً اليها، من غير أن يسمعها. ينظر الى عينيها، ملامح وجهها، تصرفاتها، شكل أذنيها، فيبني استنتاجات ويؤكد تنبؤات قد اقتنع بها مسبقاً. بدأ يحدثها عن المحاسب وعن وضاعة تفكيره ولم يكن يخبرها كل شيء يجول في خاطره من باب الحيطة والحذر. بدت أنها تحب أفكاره حين يتكلم، وأحب بدوره تعابير وجهها حين تتكلم أيضاً، وبالأخص حين يسود الصمت. إلا أن ذوقها العام واهتماماتها أبعد ما تكون عن ذهنية غيلان. لكن ذلك

الشعور تجاهها لم يكن يفارقه ابداً، ممزوجا بشعوره المضاد عن مدى تواضع تفكيرها وبساطته، ذلك الشيء الذي لم يكن غيلان يتقبله وجعله ينفر قليلا، ليصبح في منتصف حوارهما غريباً ومشلول الحواس، ولعل جلّ ما كان يتمناه أنها لو جذبت حواسه وسيطرت على انتباهه التام، لكان قد أسر لها بتلك العبارة الدنيئة التي ترافقه، ولكنه أدرك أن شخصاً ما لم يكن يسعى نحو الكمال الذي ينشده غيلان، لكي يشعر معه بالضعف ويخبره بأدق التفاصيل.

ذهب في إحدى الأيام إلى منزل ليلى بعد أن دعته الى العشاء مع عائلتها. على الرغم من أنه عاش في صراع التردد، وأن مثل هذه الخطوات يدرك أنها تجعله يخرج من نطاق حريته في علاقته مع ليلى، ولكنه أدرك تهويله الكبير للأمور، وأن عليه الذهاب لمثل تلك العلاقات الاجتماعية حتى لو أسيء فهمه. فقد توجب عليه أن يعرف بيئة ليلى بفضول كبير وطبيعة عائلتها ونمط معيشتهم. حين دخل الى شقتها استقبلتهم أختها الصغرى، وقد حملت بيدها لعبة مهترئة قليلا، وكانت أمها في المطبخ قد أتت بفستانها البسيط، الذي فاح منه خليط من الروائح الغريبة، والتي أعادته الى زمن لم يستطيع تحديده، لكنه أحس بأنه رجع ذلك الطفل الذي يمسك بيد أمه ويمسك بتفاحة باليد الأخرى، وهما يدخلان الى منزل صديقتها في إحدى أيام العطلة، وتذكر أنه كان يراقب ما يحدث حوله حين كان

صغيراً وخصوصاً تلك اللوحة التي أخافته كثيراً وكان دائم السؤال عنها. في ذلك المكان كان هناك رائحةً مماثلة.

رحبت الأم بهم وأشارت بيدها إلى غرفة الجلوس، التي جلس بها والدها لمشاهدة نشرة الأخبار. القى التحية على غيلان، وهو بالكاد قد نظر اليه حين صافحه، وهو ينظر إلى شاشة التلفاز. كل تلك التفاصيل شاهدها غيلان وجعلته يرسم الاستفسارات والتحليلات والمخاوف حولها، وخمن أن هذا الرجل لابد أنه قد شاهد النشرة قبل ساعات قليلة، والآن هو يعيد الاستماع مرة أخرى. لم يسأل الأب الضيف أي شيء بقصد التعرف عليه، ولكنه أدرك أنه صديق ابنته وزميلها بالعمل والذي كلمتهم عنه ذات مرة، واكتفى بالتعليق على إحدى الأخبار العاجلة:

ـ إن ذلك لخطأ جسيم!!!

فأجابه غيلان: بأنه لابد من تلك الهفوات، فلا يستطيع الإنسان التنبؤ بكل شيء وأن آخر استطلاعات الرأي منذ سنوات، كانت تدل بشكل جلي الى ما يحدث اليوم .فنظر إليه الأب نظرة سريعة، وابتسم له ابتسامة خاطفة وقد أهز برأسه هزتان سريعتان. جعلت غيلان يدرك أن الأب لم يقتنع بجوابه، هذا إن سمعه أو فهمه أساساً. كيف يمكن لهذا الرجل الخمسيني أن يعير انتباهه لهذا الشاب، الذي لم ينضج بعد والذي يحتاج إلى وقت طويل لكي تتبلور أفكاره كي يفهم ما يجري حوله ، ويعرف متاهات الحياة ،وكيف

تسير الظروف التي تحكم البشر. لقد شعر غيلان بهذا كله ولم يغضب أو يشعر بالاستياء ابداً. فمثل هؤلاء الأشخاص قد اعتاد عليهم، وعليه أن يقدّر طريقة تفكيرهم التي يشوبها الغرور بمعرفة الحياة، والتشدق بنفس العبارات المألوفة، التي تقول أنهم قد عانو الأمرين في هذه الحياة

الغريبة القاسية. في هذه الأثناء أنهت الأم إعداد الطعام، ولم يكن غيلان يعاني من الخجل أثناء الطعام عند الناس الجدد، بقدر معاناته عند اللحظة التي يتم دعوته بها إلى الجلوس على المائدة. فهو يشعر بالكبرياء الذي يدفعه لأن يقوم بأي شيء قبل جلوسه، وهو الموقف الذي لا يقتصر فقط على الطعام، وإنما على كل شيء حتى لو بدا طبيعياً. نظر الى الأب الذي لم يعيره أي اهتمام وهو يجلس على المائدة بصمت وهيبة زائفة.الأب الذي كان موظفاً متقاعداً يقضي أيامه في المنزل على شاشة التلفاز. نظر غيلان أثناء الأكل إلى تدرج ألوان شعر رأسه ولون شارباه الخفيفان، وأدرك أن ذلك كان صباغاً، الواضح أن هناك دافعاً غير مفهوم وراء ذلك الصباغ، يعبر عن حالة نفسية معينة. هل يكره هذا الرجل أن يشيخ؟...هل يكره أن يموت؟؟ ولذلك يشاهد الأخبار بهذه الكثافة. هل ذلك يبعث الطمأنينة في روحه؟ هل الدافع الرئيسي وراء ذلك الصباغ هو الخوف؟!! كم هو شائك رابط الخوف بالصباغ، إنهما شيئان بعيدان عن بعضهما جداً، ولكن هذا التفسير هو الأقرب الى الواقع.

وضعوا أمام غيلان الحساء والأرز وبعض القطع من اللحم الأحمر، وحين بدأ غيلان بالأكل وجد أن الطعام لم يكن ناضجاً تماماً، ولم يكن لذيذاً كما بدا مظهره، أو حتى رائحته التي داعبته كثيراً. لقد حاول التصرف على طبيعته وقد أشاد بجودة الطعام وحسن الضيافة، وأن طعم الأرز كان مميزاً ولذيذا ، ثم أوجد رابطاً جديداً بين تصرفات الأب وعدم نضج الطعام قائلاً لنفسه: إن هذا الرجل الكهل والذي رأى أن الحديث معي غير ذي نفع لأني شاب غير ناضج**!!** ولكنه الآن لم يدرك عدم نضج الطعام أبداً**!!** كم هي لمفارقة صعبة، وانتاب غيلان شعور فجائي، أقرب ما يكون لتأنيب الضمير، أنه من السخف أن يقتل الإنسان أي لحظة يعيشها، بخنجر الشك والنقد والتأويلات، وأن على الإنسان أن يعيش اللحظة مهما كانت بسيطة، فلابد أن فيها شيء من المتعة والغذاء الروحي .. ًأيا تكن نوعية الأشخاص الذين تجالسهم أو تبادلهم أحاديثهم وعاداتهم. ولكن غيلان استوقفته بعض الكلمات التي استخدمها تحديداً (أن يعيش الإنسان اللحظة)...كيف يمكن للإنسان أن يعيش اللحظة؟ هل عيش اللحظة هو العيش البيولوجي للجسم فقط؟ أن يعيش غريزياً كمادة فقط تأكل وتشرب وتتنفس وتنصاع لكل شيء يدور حولها. أم أن الإنسان يعيش اللحظة حينما يعمل تفكيره فيما يحب ويرغب، وأن يشعر بالثقة والخوف أو المحبة والألم

أو الشك والغرابة عندما تستدعي المواقف الحياتية ذلك، وتفرض عليه أن يفكر بها، ويسلم أفكاره لها وهو صلب العيش وصلب الحياة. أنهى غيلان تأمله وهو يمضغ الطعام، وقد بدأ ينظر إلى شقيقة ليلى التي لم تتجاوز العشرة أعوام وقد ابتسم لها ابتسامة عطوفة، إنها فتاة صغيرة لم تتعرف على آلية معقدة للتفكير كالتي يعاني منها هو. كم هي مرتاحة وسعيدة، من الممكن أنها ستكون أكثر راحة إذا حذت حذو أسرتها وشابهتهم بخصالهم جميعها.. في كنف السرب الآمن. أما إذا شاءت الظروف وصقلت الأيام القادمة تفكيرها، سينتهي بها الأمر أن يدعوها صديقها إلى العشاء وتجلس على مائدة أسرته، وهي تنظر الى أحد أشقاءه الصغار بعطف وتؤدة، كما يكرر التاريخ نفسه دوماً. بعد أن انتهى غيلان من العشاء وودع أهل ليلى. قررت النزول معه وبكل لطف لإيصاله إلى باب البناء، حيث أنها كانت تسكن وعائلتها في الطابق الرابع، وأثناء نزولهما عبر السلالم التي كانت مظلمة في منتصف الطوابق التي مروا بها، لم يكن ثمة أي موضوع ذي أهمية يستحق الذكر بعد تلك الأمسية، فغالباًما يكرر المرء نفس النوع من المجاملات عن ترابط الأسرة ولطافتها، أو الهدوء والسكينة التي تعيش في خضمها، أو حسن الضيافة وما إلى ذلك من تلك القوالب الجاهزة التي يتداولها الناس بحكم العادة والحالة النفسية. لكن غيلان كان في كل درجة يخطوها تتملكه رغبة جامحة في أن يضع يديه على كتفي ليلى

ومن ثم ينقلها إلى رأسها ويقبلها بحرارة، يعانقها بشدة ويشتم عبق الحياة من خصلات شعرها الأسود، التي كانت زكية الرائحة .وماهي الا رائحة أنوثة بحتة. بات هذا يكفي لعدم تكلمه ابدا، سوف يكون ذلك اختزالا لكل شيء ولكل مقولة . لكنه وبحق لم تكـــن لديه الجرأة الحقيقية لتطبيق ذلك رغم الظروف المتهيئة من حولهما. لكنه كان يفكر بذلك السيناريو، وبحركات عائلتها وبتلك العبارة القميئة التي سلبته أي لحظة آنية قد تقوده إلى السعادة. أما ليلى التي بادلته الابتسام ، لم تردد سوى عبارة وحيدة (كم أتمنى ان تأتي مرة أخرى)...

لم تنتظر حتى تصبح في الطابق الأول وبحركة سريعة مباغتة، عانقت غيلان بشغف وقد شبكت يداها مع بعضهما حول خاصرته. كان يستطيع أن يشعر بضربات قلبها تطرق ضلوعه. لم يشعر في تلك اللحظة بأي شيء مما فكر فيه، من رائحة شعرها والرغبة في تقبيلها. كل ما قد فكر فيه هو انه لم يكن ملك نفسه أبداً. كيف يمكن لفتاة لم تستغرق كل ذلك الجهد والتأمل الذي كان يمارسه أثناء عمله في السوق، أن تبادر بهذه الخطوة التي هي حق لكل البشر. حركةً لم تكن جريمة تسيء لأي أحد، هل كانت تلك العبارة الخبيثة تهمس له بأنه لا يحبها؟

ولا يجوز أن يعاملها كسلعة ترضي رغباته ونزواته!، وأنه لا يمكن لفتاة لا يجمعه معها أي ترابط فكري أو علاقة

وجدانية حقيقة أن تحقق له مراده ورضاه. انتهى ذلك كله بلحظات قليلة خالها دقائق طوال. أفلتت ليلى يداها بتأني، ونظرت له بابتسام ثم ودعته وصعدت عائدة. أما هو فاستدار ببطيء ولاتزال ملامح الدهشة والانزعاج باديةً عليه. سار في الشارع وهو ينظر إلى كل شيء حوله، كل شيء طبيعي ويسير باتساق إلا نفسه. فكر ضمنياً بانعدام السكينة، أراد كل شيء ولكن لم يكن لديه الدافع لأي شيء. يستطيع التمييز يين الحق والصواب ولكنه لم يمتلك الجرأة لترجمة ذلك واقعياً. بدأت عواطفه تتدرج بسرعة نحو الأسى، وقرر أن يستند إلى دربزون إحدى الشقق الأرضية التي أطلت على حديقة تفوح منها رائحةً عطريةً زكية، لم يستطع تمييزها لكنها كانت كرائحة الليلك. ثم رأى رجلاً من بعيد يبدو في منتصف العمر، يرتدي ّبزة أنيقة قاتمة اللون وقبعة قديمة توحي بأنها من فترة الستينات. حملق الرجل فيه من بعيد بابتسامة مشفقة، ونظرات خافتة لم تسمح إضاءة الشارع بأن توضح له فيما إذا كانت موجهة نحوه أم لا. لم يكن هناك أحد سواهما، ولكن سرعان ما اختفى الرجل. كل شيء من حول غيلان يشعره بالوحدة، تلك الشجرة في منتصف الشارع وأضواء السيارات ولافتات المحلات والملابس التي على الشرفات..

كلها تحدق به بعين الشفقة. تخبط غيلان بتفكيره حول إذا ما كان يعلم هذا الرجل أم لا، أو إن كان له في الآونة

الأخيرة أي أعداء . كل ذلك مر بثوان قليلة، حتى انتفض من استراحته على السور ومشى بطريقة سريعة محاولا ألاّ يعبر عنها على أنها ردة فعل. لكنه شعر بذلك الرجل يمشي وراءه بنفس الخطى، واستطاع بزاوية عينه أن يرىَ من وراءه، وهو من برع في ذلك دائماً. أصبح يمشي بوتيرة أسرع وبدا أكثر هلعاً، فأي غريب هذا وأي غاية يبتغي؟ لم يغير غيلان رويتنه منذ أن ولد ولم يغير من حذره وحساباته الرياضية في دقائق الأمور، فكيف بتلك المسائل الكبرى التي تجعل شخصاً بهذه السحنة المهيبة أن يلحق به بكل إصرار. لم يعلم غيلان ما يمكنه أن يفعل ليتخلص منه، فبدأ يدخل بشوارع فرعية ويمر من بين السيارات، ثم يعود إلى الرصيف، ثم للمرور من بين سيارتين، مع تسريع وتيرة خطاه بطريقة منتظمة، حتى شعر أنه أفلت منه .هنا بدء بالجري بأقصى ما يملك من سرعة، وأصبح يجري كطفل صغير كسر زجاج نافذة جيرانه وهي التي تعد أكبر كارثة بالنسبة لطفل في مراحله الأولى، مع كل خطوة شعر بالثقة وبانزياح الرعب الذي عصف به في ذاك الشارع. أخذ يلتف شوارعاً لم يرها بعمره وبدا ذلك من باب التمويه، وفي إحدى هذه الشوارع الفرعية. كان ذلك الرجل يقف على إحدى الزوايا رافعاً إحدى قدميه مستنداً بها إلى الجدار، وهو يدخن ومن فوقه إحدى المصابيح الكهربائية التي جعلت من دخانه يبدو وكأنه صادر عن قطار بخاري

وليس عن رجل يدخن. وقف غيلان كرجل متجمد، وقد جحظت عيناه وارتخى فكه السفلي، وبطريقة لا إرادية بعد ان أفلت من تلك الحالة التف إلى الوراء وبدأ بالجري حتى تخلص منه، وعاد للوقوف وحيداً في إحدى الشوارع. فكر بشقاء نفسه وضياعها،ثم نظر الى الناحية المقابلة من الشارع ليرى إحدى الحانات القليلة الازدحام التي سار نحوها ببطء، ولعله كان يرغب بالشرب أكثر من اي وقت مضى. أخذ له مكانا في زاوية الحانة وكانت الإضاءة خافتة، ونظر إلى الساقي الذي كان دائم الابتسام. طلب غيلان كأساً من الفودكا،حين كان الجميع مشغولون بأنفسهم وكأن كل شخص فيهم كان غيلان نفسه ـ ولو كانت قصته مختلفة نوعاً ما. شعر غيلان بذلك ولكنه كان متأكداً أنه أكثرهم إدراكاً وشقاء . شرب غيلان من كأسه ووضع يديه على عينيه، وكان الجو ممتلئاً بالدخان وأصوات كطنين النحل، وقهقهات عابثة تأتي بفترات متقطعة، ثم نظر الى مصدر الصوت. كانوا ثلاثة رجال يتكلمون جمل قصيرة جداً ثم يضحكون لأوقات أطول، وتمنى لو أنه قد شاركهم عبثهم وضحكهم، رغم أنه كان متأكداً أنهم يضحكون بلا سبب. جرب أن يقلد اسلوبهم ذاك، ولكن استحال عليه أن يضحك من دون سبب. كم أن التفكير شيء مؤذي وقاتل. وبينما كان يجول بنظره على جدران الحانة التي تكدست بالكؤوس الفخارية، وبعض اللوحات الغير مفهومة. كان

الرجل الذي رآه غيلان قد دخل الى الحانة، ليقف قليلا بشموخه الكبير، وثيابه الأنيقة، وتحرك ببطيء بعدها بين الطاولات، واتجه الى غيلان، وجلس معه الى طاولته.

اخرج من جيبه علبة سجائر ومنديل اسود اللون، ومجموعة من المفاتيح المتنوعة، ثم أخذ وضعيةً في الجلوس أكثر راحة، ووضع يديه على الطاولة، مبدياً عدم الاكتراث، ثم نظر بابتسامة باردة إلى غيلان.

ـ اسمح لي أيها السيد ان أشاركك جلستك هذه، لعلي قد أكون نديمك في هذه الليلة الكئيبة. أرجوك**!!** أعلم أني التقيت بك منذ قليل في الشارع المقابل، ولكني رأيت في عينيك شيئاً جعلني مضطراً أن أصححه. لا أخفيك..

ربما أعلمه جيداً، ولكن أريد ان أوضحه لك شخصياً. ربما أبدو لك رجلاً غامضاً ولا تشعر معي بالارتياح، ولكني قد أكون سبب خلاصك مما أنت فيه. أعرف يا غيلان كم أن ذلك مرعب، وكم هو غريب أن يهرب الإنسان من شيء يزعجه، والأغرب انه كلما هرب منه كلما رآه في طريقه أكثر وأكثر. أعلم أنه من الصعب أن تستحضر كلماتك وتسألني؛ من أنا؟ وماذا أريد؟

استرخ يا صديقي استرخ، وانا سأستطرد بحديثي لأوصلك لمبتغاي. استرخ واعلم انك بأمان تام. استرخ ولا تفكر أبداً، اريدك فقط ان تقتنع ـ لا بل أن تسلم أمرك أنك بأمان تام، وأنك صاف الذهن كالطفل الصغير.

أشار بيده الى الساقي وطلب منه كأسين آخرين . كانت حركات الرجل وثقته غريبة جداً. امتلك سيطرة كسيطرة التنويم المغناطيسي، ثم قال لغيلان وقد خلع قبعته الدائرية بهيبة ووقار:

- مما انت خائف يا غيلان، أظن لو أنك تعلم الجواب لما شعرت بخوفك ذاك ابداً. يوجد الكثير من الأشياء المخيفة يا صديقي أكثر من مديرك ذاك، أو زبائنك جميعهم. الحرب مخيفة، ومابعدها مخيف، الجنس والعناق، الوحدة و الإدراك.

هل سمعت يوماً بأن الوعي والإدراك شيئان مخيفان جداً. آه.. نسيت والإمكانات والمواهب. لا بد أن هنالك شخصاً ما عبر التاريخ كان خائفاً ومرتعداً من موهبته. لا بد انه كان على يقين ان شيئاً ما سيخلفه وراءه قد يدمر البشرية، او يؤذيها لآلاف السنين القادمة، ولكنه لم يكن ليستطيع كبت موهبته تلك واخفائها. فلابد لها ان تبصر النور، أو أن يصيب صاحبها الجنون قبل أن يطلق أسرها !

سوف تتساءل بالطبع من أنا؟؟ أو قبل كل هذا ماذا أريد؟ خمن شيئاً يا غيلان!!!! الآن عندإشارتي..

تخيل أي شيء فوراً!!!مم لا لا!! لست أي مما تظن.

اننا نحيد عن الأشياء المهمة التي أتيت من أجلها، رغم أنك لم تتحدث بعد و لكن أفكارك الباطنية تعيقني !

غيلان يا صديقي : لكل إنسان فلسفته في هذه الحياة.

صدق!!

أنه رغم العديد من المدارس الفلسفية والنفسية وتنوعها، فلا يزال هنالك الآلاف منها بعد. أنا أعلم كل تفاصيل حياتك، وكل ما يدور في رأسك من لحظة ركوبك الحافلة صباحاً، حتى لحظة دخولك في النوم العميق. ربما مسألة النوم لا تعنيني، فأنت لست مسؤولا عنها بشكل إرادي. لكن يا غيلان!!ماذا تظن حول خوفك ذاك؟ أنا هنا من أجل ذلك.

ألا تزعجك تلك العبارة التي تكبر معك؟؟ سوف يأتي اليوم الذي سترفضها به وهي التي تمنعك من قول ما تريد، وستتمكن بشكل من الأشكال أن تتكلم الحقيقة، ولو لمرة واحدة ومهما كان الثمن، ولكن سيتأخر ذلك اليوم كثيراً!

من حيث المبدأ تلك العبارة منطقية. فالحياة قائمة على الأضداد، الشر والخير والأبيض والأسود وما الى هنالك من الأشياء التي يعرفها ناقد ذكي مثلك.

لكن هذا التضاد وهذا النقيض هو جوهر ما نعيش من أجله، وهنا نستخدم ما يسمى آلية التفكير أو التمييز بين تلك المتناقضات والتي تتفاوت بين البشر ،ولهذا وجد المجرم والمستقيم والطبيب والموظف والكادح والمشرد. كله بسبب هذا الاختلاف تخيل لو أن الناس سواسية بالتفكير. مجرد وجود هذا، كان كفيلا بانتفاء الطبقية، وانهيار الكون في ساعات معدودة. لقد جربت يا غيلان قناعتك الراسخة

في تفادي أي مخاطر ولكنك لم تجعل من نفسك راضياً. أنت لم تكن راضياً عن كبت ما تريد أن تقول، ولكنك تقنع نفسك بأن ليس كل ما يجب أنُ يقال هو فعلا عليك قوله، ولا يمكن لكل ما يفكر به المرء أنُ يقال على الملأ. نعم يا صديقي أتفهم ذلك كله، وأتفهم الارتباط الوثيق بين ذلك الخوف ونظرية الشك، ولكنك ابداً لم تكن راضٍ عن ذلك.

لم يستطع غيلان أن يتكلم حول أي شيء فهو حتى تلك اللحظة كان تحت تأثير الصدمة والخوف. خصوصاً ذلك الشعور بالألم في أعلى المعدة وتيار الهواء البارد الذي كان يشعر به يدخل من حلقه بسرعة كبيرة وصولا لمعدته، واكتفى برشفات الفودكا وتدخين المزيد من السجائر.

ـ أستطيع ان أقول لك يا صديقي وما من أحد يسمعنا الآن إلا جدران الحانة. أن الحياة هي مغامرة، ثم هل باستطاعتك أن تخبرني لماذا جميع البشر لا يدركون أن الدنيا تستحق المغامرة؟ ـ إلا حين يقارنون أنهم مازالوا أحياء وأن غيرهم قد مات ـ ولم يعد يتنفس، فيستمر ذلك الشعور بالتفاؤل لمدة قصيرة لاتذكر، ثم يعود البشر بعدها الى طبيعتهم المتشائمة والمتذمرة من كل شيء، والأهم هو عودة الخوف من كل شيء. هل تعلم أنك اكتشفت السر القائل بأن الخوف هو- بالنهاية- مرتبط بالخوف من الموت. فأنت لا تخاف لمجرد الخوف أو الشعور به، بل لأنك تخاف الموت، وأنا هنا أتحدث عنك تحديداً. كل مخاوفك التي تتعايش معها في كل

يوم وتمحيها بإرادة مزيفة من الرضا، هي بالمحصلة مخاوف من الموت ، وهي لا تختلف عن حالة ذلك الرجل- والد ليلى - الذي قام بصبغ شعره خوفاً من شعوره بالتقدم في السن عند النظر في المرآة، وهو خوف من الموت بناء على تحليلك المنطقي، والذي أوافق عليه تماماً.

أنا هنا لأخبرك يا غيلان أنك ستتعرض لمغامرة قصيرة

نسبيا. ستبدأ غدا ..غدا فقط. يومٌ واحد. ستعيش

لساعات ستفصح من خلالها عن كل ما يدور في رأسك، فلن تمر فكرة كبيرة كانت أم صغيرة ،

إلا وسوف تعبر عنها على الملأ. جوهريةً كانت أم جزئية. لن يكون هنالك فكرة تتراءى لك فوراً

إلا وستتحدث عنها. أعلم كم يبدو هذا خطيراً، وقد يكون أصعب شيء قمت به في تاريخك كله، ولكن يؤسفني أن أخبرك أنك مجبر على ذلك، فلا يوجد هنا خيارات إلا كالتالي:

إما أن تكمل يومك بكل تفاصيله وأحداثه، وبعدها ستصبح سيد نفسك، ستكون أنت جائزتك!!

أو أن تنسحب قبل انقضائه، وتكون بذلك قد اخترت الذهاب معي إلى اللاعودة، إلى اللامكان حيث لن يعني لأحد وجودك أو عدمه، لأنك ستكون مجرد لاشيء.

هنا تخيل غيلان كل شيء غامضاً وكريهاً، وأحس بشعور

فجائي نبهه الى مستقبل ظهر فجأة. لكنه بنفس اللحظة بات يعلم أن كل ما يدور في رأسه هو واضح لذلك الرجل كحقيقةً محضة. تحسس الطاولة وكأسه وبلع ريقه.

أومأ الرجل برأسه: لم يعد لذلك معنى الآن.

سوف تسأل نفسك طيلة الليل لماذا ستتعرض لهكذا تجربة ولماذا أنت تحديداً؟

وكثيراً من الأسئلة المعقدة التي ستضرب ذهنك كعاصفة هوجاء، سيمنعك ضجيجها من الإجابة على أي شيء.

ولكن كل ما استطيع أن أقوله لك أن حياتك أصبحت عبارة عن تطبيق لإرادتك الحرة، وأعلم مسبقاً أن كل ثانية ستكون بمثابة دهر من المعاناة بالنسبة لك.

سأذهب الآن. وسنلتقي غداً عندما تجد نفسك. أتوق لرؤية لوحة النهاية التي سترسمها بيديك. إني أشفق عليك يا غيلان،و أشعر بما تشعر به الآن، حتى قبل ان تبدأ. اما الآن فأنا أستأذنك بالرحيل.

أخرج الرجل الذي كان جالساً لتوه نقوداً ووضعها على الطاولة.

غيلان والذي كادت عيناه تخرج من محجريهما عندما غادر الرجل بكتلته الضخمة تلك وثيابه الأنيقة. لم يستطع ان يحرك يديه وكأنه إنسان مشلول تماماً.

أصبحت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ورعشات

غيلان لم تكن تهدأ، وقلبه يخفق كعدّاء أنهى جولة ال 3 كم. حاول غيلان استحضار تركيزه وإرضاخ نفسه للأمر الواقع والانسحاب تدريجياً من حالة الصدمة، فسحب يداه عن الطاولة وغادرها. رغم كل ما حدث معه لم يتوقف دماغه عن تركيب الأفكار الطارئة، أو لأن تلك العبارة العاهرة قد اغتنمت فرصة الساعات القليلة المتبقية لها في رأس غيلان، فخرجت له واعطته تلك الإيحاءات المعتادة. حتى وجد نفسه خارج الحانة.

لم ينم غيلان ابداً ولم يعرف حتى فيما إذا كان عليه النوم أم لا. هو تذكر عند الساعة السادسة صباحاً أنه لم ينم، وذلك بحكم العادة. وقف على شباك غرفته يحدج بناظريه على ضوء الصباح، ولعل الشيء البالغ الضرر الذي أصابه، أنه كلما هدأ اضطرابه وخفف عن نفسه بتذكر أن اقصى ما يمكن أن يحدث له هو الموت،و بعد الموت لن يشعر بشيء أبداً. كان يعود من جديد إلى حالة الذعر والتقلب المزاجي، وأن هذا الامتحان لن يتيسر له اجتيازه حتى ولو عاش لثلاث حيوات أخرى. جلس غيلان على طاولته وأسدل رأسه بين راحتيه كما يفعل من يفقد عزيزاً في هذه الحياة، وتناول ورقةً وقلماً من الدرج السفلي للطاولة ونظر إلى ساعته بيأس، وأدرك أنه يمتلك ساعة واحدة فقط ليصبح جاهزاً ثم شرع بالكتابة. أخذ يكتب بنهم، وعندما استرسل في سرد افكاره وخواطره، انهمرت الدموع من عينيه، وبدأ يسرع

في كتابته، ويفصح عن مكنوناته ولم يعر انتباهه للأخطاء الإملائية، أو الزخارف اللفظية؛ بل راح يفرغ كل ما بداخله على تلك الورقة حتى مشاعره التي لم يقلها لأحد قط، والتي هو نفسه قد نسيها منذ زمن بعيد.

مع كل كلمة كان يكتبها غيلان كان يشعر بالارتياح كالشاحنة التي أفرغت حمولتها من الحجارة، وبذروة مشاعره تلك، وكالرياضي الذي يقوم بتمارين الإحماء قبل المضي إلى منافسته الرئيسية.

نظر غيلان إلى ساعته وقد أتمت السابعة، وبثيابه التي مازال يرتديها منذ صبيحة اليوم السابق، وتثاقلا من قلة النوم؛ خرج من منزله يسلك طريقه اليومي، ولأول مرة يدرك صعوبة المشي يومياً بنفس الطريق وبنفس التوقيت لسنين طوال من دون أن يتغير أي شيء، شكل الطريق والأبنية والأزقة ونماذج البشر، القطط، طلاب المدارس. وقف منتظراً الحافلة ، وكالعادة أخرج من جيبه سيجارة ونظر إليها بابتسامة استهزاء. كيف يمكن تكرار جميع الحركات آلاف المرات المتوالية؟

صعد إلى الحافلة وجلس في جهته المفضلة. نظر إلى الركاب نظرة رعبٍ، وكأن مصيره معلق بتلك اللحظات المصيرية، والتي سوف يتحدث بها إليهم عن كل ما يفكر به، وتلك اللحظة الصعبة حين سيفتح بها فمه لنطق ذلك.

هي أشبه بذاك المراهق الذي قد ذهب بخطوات مترددة،

ولسان معقود ، متصبب العرق ليفصح عن إعجابه بإحدى الفتيات لأول مرة. ثبت ناظريه على ظهر الكرسي المقابل كي لا يرى أي شيء يسارع إلى التصريح به. بيد أنه سرعان ما أدرك أن مصيره سينتهي بتلك الطريقة، وعندما رفع رأسه، رأى سائق الحافلة الذي كان يحدق بامرأة رائعة الجمال جلست بخلفه عن طريق المرآة القابعة فوق رأسه، وبصوت قادم من الخلف وسط ذلك الهدوء المطبق صرخ غيلان: هيه أيها الحيوان الغرائزي!! أتظن أن أحداً لم يراك أو يكتشف أنك لا تفوت لحظة واحدة لا تحدق فيها بتلك المرآة. جميعنا يعلم أن تلك النظرات هي أمر مقيتٌ جداً. تظاهرك بالبراءة واستراقك للنظر، ظناً منك أنه من المستحيل أن ينتبه أحد لنظراتك الشهوانية هو ما استفزني. هل تظن أن فتاة بذلك الحسن سوف يجذبها ذوقك الكريه وضجيج مذياعك. كانت جمله سريعة وكان السائق يستمع إليه مصدوماً ومتأهباً كمن رأى قطاراً من بعيد وتأهب للركوب به قبل أن ينطلق ويغافله. استل السائق من أسفل كرسيه عصاةً خشبية غليظة، أشبه بالهراوة والتي اعتاد سائقو الشاحنات والحافلات أن يضعوها في أسفل مقاعدهم تحسبا الى طارئ، ولكثرة مشاكلهم من ناحية أخرى، ثم قفز من بين الركاب يريد أن يحطم ترقوته بضربة مباغتة لولا أن رد الفعل الطبيعي للأشخاص الذين كانوا يجلسون قبالة غيلان والذين حفزتهم تلك الخطوة السريعة للسائق ، استدعت على الفور تحرك

إحدى الركاب لأن يمنعه من الضرب بكامل طاقته. انهالت الهراوة بنصف طاقتها على كتف غيلان مما جعله يثب من مقعده، ويقفز من إحدى النوافذ المفتوحة ليسقط بطريقة متدحرجة، وبنفس الحركة المتدحرجة تلك اكملها بالركض سريعاً لكي لا يفكر سائق الحافلة باللحاق به. ركض غيلان وكأنه لم يركض بعمره، ووقف بفيء إحدى البنايات في أحد الشوارع المتفرعة عن شارع الحافلة. أصبح قلبه يخفق بشدة وأصبح شعوره غريباً. عانى من الخدر التام وانعدام أي أحاسيس ذات معنى. فقد اصبح مشدوه الوجه،و الذي كان يرتفع وينخفض من شدة اللهاث، وأتم طريقه الى عمله بسرعة ناظراً الى الأرض ، ومشتتاً تركيزه عن ناصية الطريق كي لا يفكر بجديد. ظن أنه وبطريقة منطقية، عليه ان يأخذ قسطاً من الراحة بين كل جولة وإلا فأنه سوف يتحطم كلياً وبذات الساعة.

وصل سريعاً إلى مكان عمله، ودخل مباشرةً إلى الممر الذي يأخذه الى غرفة تبديل الملابس. جلس على الكرسي منهكا و محاولا أن يتناسى ما حدث وألم الضربة التي أحس بها بعد حين. لم يرغب بالخروج أبداً، وتمنى لو دخل إليه أحد الموظفين بالصدفة ليسعفه من الخروج إلى باحة السوق، ثم تخيل الطريقة المحتملة التي سوف يتم بها طرده. فتح غيلان خزانته وجعل مقدمة كتفيه ورأسه وكأنهما في داخل الخزانة ونظر بالسواد، وحدث نفسه:

-أعلم أن ذلك الرجل يعلم بما أفكر الآن وأعلم عن نفسي أنه يجب ان أتكلم بما أفكر.

علي أن أتخلص من ضعفي الموحش الى الأبد، ولكن كيف أستطيع ان أكسب مزيداً من الوقت؟

كيف يمكن أن ألا أخاف وأنا مجبول على ذلك! .

كان الخوف يأكل جسده ويتجسد في عينيه الحائرتين الغارقتين بالسواد.

الفصل الثانـي

كان الصراع الذي عاش غيلان ضمنه يتقلب بين الخوف والطموح. لدى غيلان ايماناً وثقة كبيرين بقدرته على بناء مستقبله، لا وبل كان لديه ثقة باختلافه وتفرده عن باقي أفراد مجتمعه القابلين للنقد جميعاً. هذا الصراع الذي يبلور الرغبة الجامحة لفعل كل شيء، وتحقيق كل شيء، ومن ثم كبت تلك الرغبة بنوع من الرضا والتعايش مع هذين الحالتين ضمن شخصية واحدة، ومعرفته لحالته تلك وتأكده منها حول صراع الرغبات زادت من عذاباته ، وجعلته دائماً في طور انتظار تحقيق الرغبات، وليس في طور تحقيق الرغبات. تلك المسافة القصيرة التي تفصل بين الطورين هي الأصعب وهي صميم المشكلة، ولا ينقصه لقطعها إلا الدافع.

كان يعيش رغباته وتخيلاته ضمن إطاره العقلي فقط. عالمه الخاص، المثالي، الذي لن ينتقل منه إلى حالة الفعل إلا ـ بدافع إيجاد ذاته التي عاش ويعيش من أجل اكتشافها. قد يكون الدافع مرتبط بالماضي، وقد يكون قسرياً ومن

الممكن أن يجمع بين الاثنين معا وهذا ما جعل الحالة النفسية التي تعرض لها غيلان تصبح بالغةً في التعقيد.

....

لم يبارح غيلان مكانه من أمام خزانته واستمر في تحديقه بذلك السواد محاولا فرض سيطرته على تفكيره، ولكنه لم يستطع أن يستحضر فكرة واحدة ذات بنية محددة.
حاول التفكير بنفس الوقت الذي يحصي فيه الزمن المتبقي له لكي دخل في لحظة من لحظات المجهول الأخرى.
لقد تأثر بنفس اللحظة بهذا المصطلح العصي على التفسير بالنسبة للكثير من البشر - بل بالنسبة للغالبية العظمى منهم .ما هو المجهول؟؟

هل مصارحة الأشخاص بمدى فسادهم، وعشوائيتهم اللامفهومة، ومدى حماقة تصرفاتهم التي يتعامون عنها بمبررات صنعوها، ثم قرروا الاقتناع بها رويداً رويداً حتى باتت قاعدة ثابتة هي من ستجعله راضياً؟؟ وإن ما هو من المفروض أن يكون صحيحاً؛ أصبح شاذاً لأنه يتنافى مع ما اقتنعوا به بفعل الزمن!. من المرجح أنه ما من قاعدة تدل على أن تصرفاً هو الصحيح وهو المنطق بعينه، وعكسه هو الخاطئ. هل خوفه الدائم هو المنطق الصحيح؟؟ إن ذلك شائكٌ بمقدار التفكير بعملية 1+1=2. فكيف لا نؤيد أنفسنا إن فكرنا بتكذيب ذلك، وليس من الناحية الرياضية وإنما من

الناحية العقلية . كيف باستطاعتنا أن نعرف ماهية الرقم 2 فعلياً لولا أنه قد تم إقناعنا ومذ كنا صغاراً بأن هذا الرقم ما هو إلا نتاج لتجمع هذين الرقمين مع بعضهما. لا يمكن أن نأخذ على عاتقنا إثبات ما قد أعيا الكثير من جهابذة هذا النوع من التفكير . بالمقابل انه لمن السذاجة أن نسلم جدلا بصحة ذلك من دون أدلة، وهذا ما جعل هؤلاء البسطاء يقتنعون بما جعلهم يظنون أنه صحيحاً من دون اي محاكمة عقلية.

في هذه الأثناء دخل جلال المهووس الى غرفة تبديل الملابس بعد أن أصابته إحدى نوباته الفجائية ، والتي لم يكن ليستطيع السيطرة عليها، أو أن يصارح أحداً بها مهما كلفه الأمر. فوجد غيلان مشلولا أمام باب خزانته وقد جحظت عيناه واصابها الاصفرار، وأصبحت مرعبةً لأي شخص يراها، ثم دنا منه بتؤدة وقال له:

ـ ما خطبك ياصديقي؟هل أنت مخمور؟

ـ جلال !! هل تعدني بأن تتمالك نفسك إذا ما أخبرتك بشيء ما؟

ـ نعم . بكل تأكيد!! لطالما كنت إلى جانبي ولطالما زرعت في نفسي الارتياح لسبب لا يعلم أحدٌ به غيري.

ـ أعلم يا جلال. أعلم كل شيء . هذا ما يهلك نفسي

ـ أتقصد!!؟ ماذا تعلم؟

ـ نعم. لا يمكنني أن اتكلم معك بلهجة الأم العطوف. لا يمكنني ان أرشدك كما يفعل النساك والحكماء. لا يمكنني إلا أن أصارحك وبمنتهى القسوة بكل ما يمليه واجبي أن أقوله لك. لأن ذلك هو الطريقة الوحيدة التي ستجعلك فعلياً تدرك وجوب تغيير حالتك، ومدى جمال الحياة التي مازالت أمامك طويلة لتعيشها بسكينة طالما أنك قادرٌ على أن تقلبها لصالحك.

قال تلك العبارات بحكم عادة الإنسان المغرور، والتي تجعله يتكلم بحكمة عن شيء أصبح يفتقده لتوه بعد أن كان جزءاً منه ، ودون أن يدرك أهمية وجوده، وهنا القصد قسوته في إخبار جلال لتوليد الدافع والذي يشبه امتحان ذاك الرجل، وفقدانه لجمال الحياة من ناحية أخرى، وتشدقه بما لا يشعر به الآن.

ـ لكن ما الذي يجعلك متأكداً أني لا أملك تلك السكينة الآن؟

ـ تعلم يا صديقي ان أسوأ أنواع الكذب هي أن تكذب على نفسك وأن تجبر نفسك على تصديق ذلك بمنتهى اليأس؟

اني لأشعر برغبتك الجامحة بالبكاء، والحقد والنقمة يملآن نفسك في هذه الحياة، لم يكن لأحد أن ينشلك من هذا يوماً، لأن المنطق يقتضي أن تصنع مالم يستطع أحدٌ صنعه لك يوماً. أعلم أن مشكلتك وبالتحديد هي عصبيةٌ

عن السيطرة ألسباب يمتزج بها الطب بالإرادة، ولكن ما أرمي إليه وبدقة ؛ أنك لم ترغب يوماً في أن تتخلص مما أنت عليه الآن. إنك تؤجل حالتك إلى اللانهاية حتى يأتي اليوم الذي ستقرر به أن تعالج نفسك ، بعد أن تكون قد اصبحت في وقت تغدو به معالجتها أو عدمه على حد سواء. حينها ستعلم كم كان من الممكن أن تكون الحياة جميلة. خرج جلال مصدوماً شاحباً، كان اكتشاف سره كمن افقده عضواً من جسده فأصبح جسده بالقيمة. ذهب الى المدير واخبره بأن عليه ترك العمل فوراً وأن أمراً طارئاً حدث لأسرته وتوجب عليه السفر، ومن المرجح أنه قد لا يعود أبداً. غادر كمن نبذه رفاقه بعد أن انهالوا عليه بالشتائم والضرب، وهو الشعور الذي لا يدركه الا هم انفسهم. ربما الأيام القليلة القادمة ستجعله يفكر بكلمات غيلان لتكون مفتاح حياته الجديدة.

شعر غيلان بأنه قد تكلم بطريقة واعظة أكثر من كونه قد تحتم عليه أن يتكلم، وقد شعر بأن ذلك الأسلوب التعبيري الهادف، قد يكون أكثر نجاعة من مجرد التحدث بهدف الحقيقة وطرد الخوف وإنهاء مأساته الحتمية. إنه بذلك يجعل من الحقيقة هادفةً ومفيدة لمن أعياهم شقاء إنسانيتهم. فإن ما يقوله لن يغير من مجرى قصته شيئاً ؛ لأن ما ينشده هو قول الحقيقة فقط، إنما من الممكن أن يغير من مجرى حياة الكثيرين، خصوصاً أولئك الذين لم يسمعوا

كلماتٍ تلامس صميمهم، وتوجه النقد لسلوكيات ظنوا أنهم وحيدو العلم بها وبمبرراتها.

خرج غيلان إلى البهو بعد أن استجمع القليل من قواه وشعر بالارتياح للطريقة التي صارح جلال بها بطريقة الرموز، والتي استطاع أن يستوعبها جلال من دون أن توصف له بحرفيتها الجارحة. كان جميع الموظفين الذين يرتبون الرفوف ينظرون إليه ويكررون السيناريو اليومي من دون أدنى تغيير. سار بين الصفوف كالمعتاد وفي نهاية الممر وقف ـ كأنما الماضي يكرر نفسه دائماً- ليحدق بمحاسبة الصندوق الجميلة بعد أن فرغت من آخر زبائن الطابور الخاص بها، ثم لتتفقد أظافرها بطريقة حمقاء، تشوبها الغرور والتعالي. رفعت هاتفها لتقوم بإجراء مكالماتها المعتادة مع صديقتها على الصندوق المحاذي لها عن والد خطيبها المعقد ولتنتقل وبشكل مفاجئ للحديث عن صديقتهما القديمة، والاستهزاء بحذائها المتخلف ونطقها الخاطئ لإحدى الحروف. تلك العبارات التي رددوها لأشهر طويلة وفي كل مرة كانوا يضحكون، وكأنهما تتحدثان عنها لأول مرة وتنهي المحاسبة حديثها بالتفاتة ملؤها الثقة بالنفس والرضا الشديد عن شخصيتها ومميزاتها.

ربما سببه الإحساس الضامر بمدى اختلافها عن الفتاة التي كانت موضوع الحوار، ونظرات التأكيد التي شاركتها بها زميلتها والتي كانت أقل عدوانية .

غيلان الذي كان يراقب ذلك والذي كان يعرفه حق المعرفة بات يتألم غاضباً، ممقوتاً ـ لا بل عدوانياً. رأى القبح والجحيم متجسداً في تلك المرأة. كره والداها الذين لم يرهما من قبل، وكره غرفتها، أغراضها، رفاقها. لابد أن تعلم شيئاً عن نفسها، وعن انسانيتها الممسوخة. لابد أن تعلم أن أحد ما، يعي ماهي عليه. تقدم غيلان بخطوتين ثابتتين واضعا اصابعه الخمسة على طاولة الصندوق، واليد الثانية كانت خلف ظهره مخاطباً إياها بلهجة ملؤها التهكم:

ـ ماهي الأسباب التي تجعلك تعتقدين أنك كاملة، والتي ترفعك إلى ذلك القصر العاجي. لا يمكنني إلا ان أجد الأعذار المناسبة التي جعلت منك بهذه الهيئة المتعجرفة. ربما أن جمالك منذ ان كنت طفلة كان يجعل منك مدللةً بطريقة مبالغ بها، وأجزم أنك كنت كما في القصص الكرتونية، زعيمةً لمجموعة من رفاقك بالمدرسة البالغ عددهم 3 او 4 والمشابهين لجمالك ولمستوى معيشتك المرفهة، ثم كبر كل ذلك معك. إن تأثير جمالك لا يفسح المجال لإنسان أن يخبرك بجوهر حقيقتك وحمق أهدافك وغاية حياتك.

وقفت الفتاة بعد أن ضاقت ذرعاً بكثافة كلماته التي انهمرت عليها، وبطريقة لا تسمح لها بالدفاع عن نفسها لتكتفي بالذهول والصدمة أمام صديقتها التي كانت تراقب كلامه بمنتهى الدهشة ، ثم صرخت بطريقة هستيرية:

ـ ماذا تظن نفسك ايها الأحمق القذر؟

ـ إني من سيغير حياتك أيتها التافهة. إني من سيعالجك بالصدمة. هل تدركين أنك ستصبحين حيزبوناً يوما ما؟ هل تدركين بشاعة تجاعيد وجهك حينها؟!! هل تدركين كم ستكون رائحتك كريهة وكم سيكون تشبثك بالحياة كبيراً؟! هل تدركين أنك ستصبحين عطوفة ونادمة. ثقي أنك ستتأثرين بكلامي حتى ولو بعد حين؛ لأني الوحيد الذي من أخبرك بما أنت عليه فعلا. هل سمعت يوماً بعبارة (ما من شعور نظيف أبداً) الذي تحدث عنه فرويد؟. هل تعلمين أن صديقتك التي تشاطرك غرورك وتغذيه فيك، هي أشد الناس غبطةً وفرحاً في هذا الموقف الذي أنت به الآن؟ بإمكانك فهم ذلك إذا قرأت ملامح وجهها. كما بإمكاني أن أقرأه أنا و ربما ليس باستطاعتك فك مثل هذه الطلاسم الآن، لكن يوما ما ستمتلكين تلك الخبرة.

وثبت صديقتها إلى جانبها وبدأت بالصراخ كالمرأة التي قد خطفت حقيبة يدها من قبل إحدى اللصوص. تجمع الموظفون ليروا ما قد حدث بدافع الفضول، إضافة إلى عدد من الزبائن الذين توجهوا إلى مصدر الصراخ. حتى أتى مدير السوق ليشق طريقه بين الحشود مستعلماً عما يحدث، ظناً أن هناك سرقةً ما، أو أن أحد من الزبائن يتشاجر مع آخر. تقدم المدير باتجاه الموظفة التي كانت تصرخ وتقذف الشتائم باتجاه غيلان، وعندما رأت المدير ؛ انفجرت بكاءً وقالت له إن هذا المجنون أهانها بأقذع العبارات ، ثم شتمها وشتم عائلتها أمام

الموظفين وذلك من دون أي أسباب معروفة ، وأنه استرسل بالشتائم والعدوانية، حتى كاد أن يضربها لولا أنها صرخت وتجمهر حولها الموظفين ليخلصوها منه.

قال غيلان وبصوت عالٍ وبحركات مترنحة : صحيح

أني تكلمت معها بقسوة وصراحة، ولكني لم أنو ضربها أبداً. ليس لدي أي غاية عدوانية،و أنا هنا لكي تعرف حقيقتها، ولكني أتوق لفعل ذلك الآن.

صرخ المدير ـ ماذا أصابك أيها الأحمق؟؟

وأنتم جميعاً اذهبوا الآن إلى أعمالكم، وأنت تعال معي إلى مكتبي. عاد غيلان للصراخ موجهاً كلامه للموظفين قبل ذهابهم. اسمعوا جميعاً اسمعوا أيها الحشد**!!**

ثم ركض الى آخر الرواق الذي كان وراءه، والذي يصل بين مقدمة السوق وأوله، وقد اكتظ السوق بالموظفين والزبائن والفوضى. اتجه الى إحدى الزوايا التي أغلقت بقفص حديدي بقي بابه مفتوحاً، وكان يتضمن ادراجاً صغيرة، ومنصة وضع عليها بعض السلع التي لم تكن للعرض، فاعتلى المنصة بعد أن أغلق الباب لحديدي، ووقف باستقامة تدعو للسخرية والتهكم، وشعر بالإرباك الفطري الذي يشعر به الإنسان، عندما يراقبه حشد من الناس ليترقبوا ماذا سيقول أو يفعل ، ثم وجه أصابعه إلى الحضور:

يا من تعيشون في فردوس اللامعرفة واللافهم. لستم

سوى مجتمعاً من المنافقين ، الكاذبين ، الباحثين عن وهم

الطمأنينة. فها هنا ثلاثة موظفين لا يعملون ولا يجلسون إلا مع بعضهم بحكم العقيدة الواحدة، وهاهنا موظفةً حاقدةً لا يسيرها إلا الحسد والبغضاء والكراهية. فلا تخالط أحداً، و أحد لا يكاد يعرف اسمها، وقد أعمى بصيرتها قبح ملامحها، كما قد أعمى جمال تلك التافهة- مشيرا للموظفة- بصيرتها، والتي لها الفضل الأول في أن جعلتني أقف بينكم اليوم في هذا الخطاب العظيم، وها هنا عشقٌ أحادي الجانب. شابٌ يوزع ابتساماته الساذجة، ونظراته البراقة لتلك الفتاة التي كان طموحها هو المدير حتى لو اجترها للرذيلة ، ومدير وغد يرتدي ملابس أنيقة يظن نفسه ملكا على السفلة والمعدمين الذين يتوجب عليه سحقهم واستعبادهم.

ها هنا موظفٌ قوي الجسد يظن أن الكون قد اختُزل بجسده، وعدوانيته، وعضلاته ، وميله للعراك. أجزم ان آخر مرة فكر فيها بما هو عليه فعلا؛ كانت منذ عقد كامل و لديه من الحيوانية ماتجعله يقتلني نهائيا بسبب الكلام الذي أقوله عنه الآن. أيها المرضى ، الأقوياء، والسذج السعداء. أيها الجبناء الأصحاء . أيها الخائفين ابداً. أيها الفارغين السائرين في نومكم ليل مساء، إنها ساعة الذروة ولحظة الحقيقة. لست أشحذ هممكم لأي شيء ، وإنما أنا هنا من أجل الحقيقة. كان قوي الجسد يحاول خلع الباب كالثور الهائج، وكان الجميع يراقب ما يجري بذهول شديد، وكان بعضهم يصيح: اطردوا هذا المجنون المختل عقليا!! اضربوه!!! اطلبوا الشرطة!!.

لحسن الحظ ! كان هناك العديد من الموظفين الذين اضمروا الإحترام لغيلان وأحبوه، والذين لم ينالوا نصيبهم من خطابه الوحشي المختزل.

قاموا بإبعاد قوي الجسد، ومنهم من قام بتهدئة المدير كي لا يتصل بالشرطة، وأن يكتفي بطرده بما أنه لم يقم بأي فعلٍ جسدي أو عنفي، وهو الذي اكتفى بتوجيه الكلام فقط. نزل غيلان، وقد قام هؤلاء الموظفين بتغطيته، والركض معه بأقصى سرعة لإيصاله إلى الباب الخلفي، وقام بالركض بأقصى سرعة، والتفت قليلا إلى الوراء ليرى فيما إذا كان يلاحقه أحد، ثم تابع الجري على الطريق المليء بالمياه و رائحة ما بعد المطر التي تدمر أعماقه وتزيدها هلعا. تابع جريه لفترة ليست بالقليلة، حتى خارت قواه، وظن أن المسافة أصبحت كافية لكي لا يلحق به أحد منهم. استمر بالجري كالتائه وسط الصحراء، كلما وضع قدميه على الأرض شعر وكأنهما ينغرزان في باطنها، وأن الأرض تمسك بهما، فلا تدعهما يفلتان منها، وشعر بتثاقل جسده؛ الذي ظن أنه لم يبارح مكانه قط، وأنه مازال بجوار السوق. وصل أخيرا إلى الطريق السريع، البعيد نسبياً عن السوق، وهنا علم أنه ابتعد قليلا رغم كل التشويش الذي طغى عليه. تربع هناك جسر مشاةٍ لعبور الطريق السريع، و جلس غيلان على الدرجات الأولى منه مستسلماً لأنفاسه السريعة ومذهولا. غدا وجهه كتمثال صخري يفتقد

للحيوية، وآثر الصعود إلى فوق الجسر كي يتفادى مخاطر قدوم أي شخص يبحث عنه، وبالتالي يكون الرصد من الأعلى أفضل. استجمع قواه وضغط بيده على بطنه وأمعائه وحاول الصعود متثاقلا؛ يحمل جسده الذي بدا أكثر هزالة. نظر إلى الجسر الذي يبلغ بضعة عشرات من المترات، ولم يرى نهايته أبداً. أسند مرفقيه على سور الجسر الحديدي، وجحظت عينيه وتوسعتا بشكل كبير، ونظر إلى الطريق الذي التمعت على مياهه القليلة اشعة الشمس. لم يكن قادراً على التفكير حتى ظن أنه سيسقط الى الأسفل، وفي تلك اللحظة لاح له الموت وشيكاً. أحب الحياة بمقدار كرهه لها وتمنى لو أنه كان نائماً، وأنه سيستيقظ عند سقوطه ثم ينهي كل ذلك الألم، ولكنه لم يتقبل أن يعود إلى صحبة تلك العبارة المدمرة بعد الساعات القليلة التي أمضاها، رغم كل إنكاره لمنطقيتها. اعتمل الضياع الشديد في ثنايا رأسه وأغمض عينيه.

"ما هذا الشعور الفريد الذي يعتريه؟ يشعر بأنه يطير من غير سيطرة. تقذفه الريح بين الأرجاء، و جسده ثابت، متحدٌ في الجسر؛ كالشجرة. فقط أفكاره تحلق. تنتقل بين الأزقة، لتلعب مع الأطفال، وتنذرهم بمستقبلٍ مرعب. بمستقبلٍ مخيف، ثم تدخل إلى بيوت عائلاتهم، تعكر صفوهم، وتجرح طمأنينتهم، وتدنس موائدهم ، ثم تحط على نباتات الاكاسيا؛ تصارحها بشح المياه، فتذبل على الفور. لتنتقل

إلى شجرة الليمون، وتبوح لها بمصير ثمارها، فتثكل وهي
واقفة، وتصبح تربتها مقفرة، ثم تدخل من نوافذ ضيقة
إلى صفوف المدراس. تدب على جدرانها، ثم تضع

عليها شرنقات صغيرة كتب إلى جانبها (تكبر، كلما

ازداد جهلكم). فيبكي التلاميذ والمعلمون نيام، والكتب
موصدة بأقفال حديدية مجنزرة - كتب على غلافها (تفتح
لمن أحبها بصدق). فينظر التلاميذ اليها برعب، ولا يفتح اي
منها. ثم تعاود طيرانها، وتذهب الى شرفات منازل عالية،
وتكتب على الثياب المنشورة (ستتسخ من جديد. إحذروا
الصراحة !)؛ وتدخل الى مطابخ مفعمة بالروائح الزكية، إلى
الموقد مباشرة. تتحد بالنار المستعرة، لتأخذ شكلها العشوائي،
ويرسم لهيبها أشكال بشرٍ، جياع، هزيلون، بقفص صدري
بات خارج أجسادهم، وترسم شرارات لهب اخرى على الموقد
النظيف- شكل الحصبة- انها توحي بالحصبة. ليدخل الحشد،
ويروا الصورة فتهجر الموائد الى الأبد. ثم تعاود طيرانها
الأعرج، لتدخل الى غرف الزوجية، تلوث قدسيتها، وتنخر في
أخشاب ِأسرتها، وفي غمرة الحب؛ بينما العيون تتجه الى
السقف. يراها الأزواج، تطوف حول المصباح، بين اشعته
المتناثرة، أضواء مشوهة، بألوان ليست مألوفة، أطياف
متداخلة لم تحللها الأعين من قبل. ترسم حشود بشرية هائلة،
منبئة بخطر التناسل ، ثم يأتلف اللون من جديد على

شكل حمم بركانية متوهجة حفر عليها آلاف العبارات
ـ منها (ولدت من بركان حبكم، الخامد) .(لا قيمة
لبركان ٍ خامد) .

ثم تطير الى جبال بعيدة، وتدخل بيوتاً مهجورة، وتغطس في ينابيع صافية، وتنزل في وديان وعرة، وتخاطب الأيائل، ويثور القطيع، حين يرى العشب الغض يصبح يابساً.تتحول الأيائل الى حيوانات لاحمة، ثم تطير من جديد بأجنحتها التي تحمل الخراب، وتغادر الجبل، وتنزل الى المحصول. الى القمح المرتعد ـ من أفواه الجياع - فتقوي عزيمتهم. تقترب السنابل من بعضها عاشقة. تلامس بعضها، وتحتك بشغف، فتشتعل إرادتها، لتحرق نفسها، ويفنى المحصول حقداً على بني البشر.

ثم جرت أفكاره وكأنما روحه أيضاً لأميال شاسعة، ومحت زيف الذكرى؛ التي حفرت على أشجار الزيزفون والجميز، ومرت ببيوت خشبية تجاورها، عقدت فيها مجالس عزاء، لترسو على الفناجين، وتنسج عبارات على
سطح قهوتهم (انتم لستم حزانى)، (سيعقد لكم بيوت
عزاء في المستقبل. سيحضرها أناس ليسوا بحزانى). لف الصمت باستثناء العويل القادم من غرف مجاورة، ثم خرجت من جديد وتابعت الجري.عبرت محيطات هائلة، وأمواجاً موحشة، ثم دخلت مصانع ضخمة، صناعات ثقيلة، وعمالٌ أعياهم الشقاء، وكتبت على قبعاتهم

الصفراء (نحب الاستعباد). وغادرت إلى مصانع اخرى. مصانع أسلحة تنتج الموت على مر الساعة ،و بطاقة انتاجية قصوى لا تهدأ. تشق طريقها الى أسواق لم تكسد يوماً، ونقشت على أخمص البنادق-رسائل حزينة لبنادق حزينة:

(آه يا بني الإنسان، أصبح لنا لسان. يا من تولدون على البغضاء والاذى رغم العمر الضئيل الذي تعيشون. أما نحن فأخرجنا عنوةً من رحم الأرض بعد قرون من السلام. نمزق أجساماً بضة،ُونبكي ملايين البشر. كما أبكاهم آبائنا وأجدادنا من قبل حينما كانوا سيوف بدائية. إننا نئنُ باستمرار، ونذرف بارود فوهاتنا حزناً على مصائرنا. سنصبح يوماً ما حجارة، لا تعمر حضارة. سنصبح فرصاً ضائعة لحضارة منكوبة، صنعت كل شيء، سبرت التاريخ، وقدّرت عمر الأرض، وطارت بين الأكوان، وأوجدت العلوم، صنعت كل شيء، لكنها عجزت أن تصنع السلام) .

ثم طارت تائهة بحركة لولبية، في تهوام سفرها الحاضر. وثبت بتخبط، ودارت ألف دورة، وعبرت عصور وحضارات بائدة، بمشاهد ضبابية. لتجد نفسها تحت سماء ملبدة بغيوم بنفسجية، وفي الأسفل؛ تلال رابضة حزينة، وليلى تحت ظلال وارفة، ترتدي فستاناً مخملياً، وتحمل صندوقاً متوهجاً، وعيناها لا ترمشان ابداً. فتحت صندوقها بيدين مرتجفتين، مشرقتين، وأخرجت كتاباً أعطته لغيلان. كتاباً صفحاته زجاجية لا ينتهي مهما قرأ منه؛ كتب على غلافه

ـ (إذا ما انكسرت إحدى صفحاته! يفنى صاحبه، وتبقى أفكاره تسبح في الفضاء) .

كانت كل صفحة فيه فارغة، مدببة. تجعل من انعكاس عين القارئ، وملامح وجهه قصة حقيقية ، وفي كل صفحة، قصة تختلف عن الأخرى. ففي إحدى الصفحات، كانت تجاعيد وجهه ـ بعد انعكاسها، ترسم أنهاراً تنبع من الماضي ، وتجرف بجريانها أصواتا من طفولته المنصرمة. شقائق النعمان، وبراءة الصداقة، وحب المعرفة، ونقاوة همومه وجنة اللعب.

صفحة أخرى تعكس شكل عينيه الواسعتين على شكل مستقبل أبيد بسراديب معتمة، تملأ جدرانها شعلات متوقدة تملأ السراديب عتيقة ، ولوحات مسمارية تملأ جدرانها ، وجموع تركض استعداداً بعد قرع الطبول. يحملون فؤوساً حادة بيد ، ومخطوطات باليد الأخرى وفي الجهة المقابلة؛ وحش الحرب و الخوف. هاجس غيلان. هاجس بشري عام. لتبدأ الحرب الطاحنة، تستمر شهوراً، ثم تهدأ ولا يبقى منها الى المخطوطات، كرسائل لحضارة أخرى، واستعدادا لحرب أخرى.

لم يدرك غيلان ما حصل أبداً ولكنه استيقظ رغم معرفته التامة بأنه لم ينم أبداً طيلة الستة وثالثين ساعة التي مضت. ذلك أشبه باستيقاظ من اليقظة نفسها. وجد نفسه مع ليلى يجلسان على العتبة المسقوفة التي تؤدي الى سطح البناء الذي يقع فيه منزلها.

ـ أين نحن الآن؟ وكيف وصلت إلى هنا ولم أدرك أننا مشينا كل هذه المسافة؟

ـ أنت الآن معي. فوق منزلي، لاتخف!

ـ أخاف!!

هل أنا حقيقي فعلا ؟هل أنا لاشيء؟

أم حواسي هي التي خدعتني. هل يبدو لي أي شكل واضح الملامح؟؟

لا أشعر إلا بحركة شفاهي ولست أسيطر على ما أقول. هل أحب الحياة مخافة الموت؟ أم أني أحب الموت الآن؛ وما الحياة إلا دربٌ من الدروب التي تودي إليه. أشعر أنني نقطة مصمتة تسبح بالفراغ، أو زاويةً في إحدى لوحات الفن التكعيبي. هل يمكن أن ينتهي كل شيء على ما يرام؟

ـ لست بالمهارة الكافية لابتداع عبارات مفهومة ومركزة تجعلني أعبر لك بأني أدرك ماهية حالتك التي أنت بها الآن. لكني أؤكد لك أنك وبلحظة ما ستنتهي من أي شعورٍ يقف في طريقك، حتى لو انتهى بالطريقة الأبشع ، ولكنه سيكون الخلاص مما انت في كنفه الآن.

تردد قليلا قبل أن يدلي بلحظة الحقيقة التي ليس بإمكانه التأخر عن النطق بها أكثر.

ـ هل تعلمين ؟ مذ رأيتك كان انجذابي لك تافهاً ٍ محضا. لم أشعر بعاطفة تجعلك في أعماقي، ولعلي لا

أدرك ماورائيات مثل هذه العواطف. لكني وبكل الأحوال

انجذبت إليك بهدف الجسد. أعرف أنه من المستحيل تقبل ذلك بالنسبة إليك علناً، رغم أنك تتقبلينه في السر. لكن تلك عادة البشر مخادعون حتى لأنفسهم. لم يكن باستطاعتي إلا أن أعبر لك عن ذلك، أنت التي شهدتي غرابة ما حدث معي، ومدى سخافة تلك الوقائع، والسرعة التي جرت بها. فسأعذر ما سيتبادر لك.

- ال تطلق أحكاماً متسرعة. لو لم التمس شيئاً من نفسك

في لما تبعتك إلى حيث أنت. أتذكر كيف قبلتك؟!

وكيف أنك ارتعدت خوفاً، حتى كدت تتلاشى بين كلتا يدي، و أذهلت كيف أمكنك أن تحتبس رغبتك العارمة

لفرصة قدمت لك على طبق من ذهب. لقد شعرت بأنك جاحد، وأني قد قبلت حائطاً صلباً يخفي وراءه جيش من الرغبات اللانهائية.

كانت تلك العبارات قد هدأت من روعه وجعلته يستعيد القليل من السيطرة، ليشعر بفوضى مشاعره التي كانت في ذروة امتزاجها.

نهضت بسرعة، ودخلت إلى سطح البناء، وأحضرت علبة كرتونية، قد وضع بها زجاجة من النبيذ الأحمر وكأسان صغيران، ومفتاحاً للنبيذ حلزوني الشكل وبجانبه الآخر سكين وتفاحتان، ثم عادت إليه وهي تمشي بطريقة فاتنة.

بدت أكثر جمالا. جلست بجانبه وملأت الكؤوس. شربا نخب الحياة التي يجب أن تعاش حتى الثوان

الأخيرة. كانت تلك الفكرة هي إدراكهما الأوحد في تلك اللحظة-"كل في ذاته - بدون أي تصريح، فالصمت أكثر تعبيراً في مثل تلك المواقف.

وضع أصابعه على وجنتها ونظر إليها بإمعان، وقد بادلته النظرات وغرابة المشاعر رغم عيناه الشاحبتان وأسنانه التي اصبحت صفراء، ورغم رائحته الكريهة. قبلها كما لم يقبل أحداً من قبل، بإرادة حرة، وتنفس سجين، وشوق لا ينضب.

قبلها برغبة تتعدى حجم الكون، ثم خلعا ثيابهما على عتبة الدرج تلك، والتي دخل إليها ضوء السماء، وشعاع طفيف من أشعة الشمس، وانكب على نهديها يقبلهما كالتائه، وبكل مرورٍ على ثنايا جسدها العاري تماماً؛ كان يشعر بأنه يملك كل شيء وأن كل شيء باتٍ قابلا للتغيير في خضم هذه الحياة الجميلة التعسة. اندمج جسديهما ببعضهما بتآلف يأبى الوصف. أغمضت عينيها، وقد شعرت بأنها لم تعد من هذا المكان. إنما هي تطير بدون جناحين. شعرت بأن الهواء يحملها الى الفضاء، مستسلمةً كل الاستسلام بتلك اللحظات التي يندر الوصول إليها بهذا التناغم من دون روابط ، و من دون مسؤوليات تقوض تلك اللذة .

أما غيلان الذي أوغل في انفعالاته ، وشعر أن الجنس هو عالم آخر تماما، وٍهو كاف ليزيد من إصراره على التشبث بالحياة رغم كل شيطانيتها.

مع كل تنهيدة كانت ليلى تزفرها؛ راح غيلان يشاطرها كل شعور، وكل حركة، حتى انتفضا مع بعضهما بلحظة توقف

فيها عقليهما عن التفكير، وتوقف عندها الزمن، وارتميا على ظهريهما، منتظرين انقضاء هذه اللحظات التي تسبق العودة الدراماتيكية الى رتابة الحياة واعتياديتها. لا يمكن لأي شعور أن يدوم طويلا . لا بد لكل شيء في هذه الحياة أن ينقضي، كالوقت الذي قطعاه مع بعضهما من دون اكتراث وبلا قيود. كان ضوء النهار قد بدء بالانقضاء، وشعر بحرارة جسده تملئ الفناء، وشعر بأن له وهجاً يطغى على ضوء الشمس الخافت، التي لم يبقى منها إلا النذر اليسير حتى تختفي بكليتها. ظهرت أصوات طيور قادمة من بعيد، سمعت بوضوح. وسمع ضربات قلبه تؤازر صوت ساعته، واشتم رائحةً لا يمكن تمييزها مطلقاً. تآلفت كل حواسه تلك لتعيده إلى السوق ، وغرفته، وأصدقاء الطفولة، ودراجته الصغيرة التي كان يذهب ليملئ إطاراتها بالهواء بمنتهى السعادة، النزهة مع والده أيام العطلة ومراهقته في ذلك المنزل الريفي الجميل ،ثم نضجه ، دراسته الجامعية ، وزميلات بأجساد فتية ، وشفاه قبلته وأياد مسحت له شعره .

هل استيقظ للتو؟ هل كل شيء على أفضل حال؟ نظر الى النبيذ، الفتاة الغافية ، والى مفتاح النبيذ، والسكين.

...استلقى غيلان على ظهره ونظر إلى السماء...لم يعد نفسه. إنه الآن لا يفكر ان يكون بمأمن عن أي شيء... لم يعد يعنيه شيء بالدرجة الأولى، ليلى أو المدير، أو ذلك الرجل... إنه يرى الآن صحراء خالية. صحراء من الملح ......

النهاية

وحدهم محددو التنظيم ، يعشقون الفوضى .
وحدهم الخائفون ، سيركبون الأخطار .
وحدهم الضعفاء، هم الأقوياء ، الأشداء .
وحدهم سيكونون غيلان ، لكنهم ينتظرون الفرصة .

تصميم الغلاف
هام السليم